الأرشيف الوطني
NATIONAL ARCHIVES

وزارة شؤون الرئاسة
Ministry of Presidential Affairs

ذاكرة الوطن ذاكرة الوطن ذاكرة الوطن ذاكرة الوطن ذاكرة الوطن ذاكرة الوطن

ليوا

مجلة علمية محكّمة يصدرها الأرشيف الوطني

السنة السادسة • العدد الحادي عشر • يونيو ٢٠١٤
ISSN 1729-9039

ليوا

مجلة علمية محكّمة يصدرها الأرشيف الوطني

رئيس التحرير
د. عبد الله الريس
المدير العام للأرشيف الوطني

نائب الرئيس
ماجد سلطان المهيري

مديرة التحرير
د. يسرا صوفان

هيئة التحرير
د. جوينتي مايترا
فرحان المرزوقي
سعيد السويدي
جريجوري كيث ايفرسون

سكرتيرة التحرير
نوف سالم الجنيبي

التصميم والإخراج
محمد عادل

الهيئة الاستشارية

سعادة زكي أنور نسيبة
مستشار وزارة شؤون الرئاسة، ونائب رئيس هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، وعضو مجلس إدارة الأرشيف الوطني

أ. د. مصطفى عقيل الخطيب
أستاذ التاريخ الحديث – جامعة قطر

د. جون بيترسون
مؤرخ ومحلل سياسي

د. محمد سعد المقدم
أستاذ التاريخ الحديث المساعد – جامعة السلطان قابوس

د. سعد عبدالله الكبيسي
أستاذ الأنثروبولوجيا المساعد – جامعة الإمارات العربية المتحدة

© الأرشيف الوطني، ٢٠١٣
أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة

ترحب هيئة تحرير مجلة ليوا (ISSN1729–9039) بالبحوث العلمية الأصيلة غير المنشورة، باللغتين العربية والإنجليزية، في موضوعات تختص بالتاريخ والتراث والآثار للإمارات العربية المتحدة ومنطقة الخليج العربي.

ترسل البحوث وجميع المراسلات المتعلقة بمجلة ليوا إلى العنوان الإلكتروني liwa@na.ae

الكتب التي تصل إلى المجلة لمراجعتها لا تُردّ إلى أصحابها.

لمزيد من المعلومات وللاشتراك في المجلة يرجى دخول موقع www.na.ae

ما ورد في هذا العدد يعبر عن آراء الكُتّاب ولا يعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو الأرشيف الوطني.

طبعت في مطابع الأرشيف الوطني

لِيوَا

مجلة علمية محكّمة يصدرها الأرشيف الوطني

السنة السادسة • العدد الحادي عشر • يونيو ٢٠١٤

المحتويات

لكي نتعلم من خبرات الماضي **٣**
بناء الأرشيف الوطني للإمارات العربية المتحدة*
د. عبدالله الريس
مدير عام الأرشيف الوطني

معاهدة الصداقة والتعاون بين **١٩**
المملكة العربية السعودية والمملكة المصرية مايو – نوفمبر ١٩٣٦
د. أشرف صالح محمد سيد
جامعة ابن رشد – هولندا

العلاقات الفارسية العُمانية **٤٧**
في عهد الإمام أحمد بن سعيد (١٧٨٣-١٧٤٤)
موزة عويص علي الدرعي
باحثة في مركز زايد للدراسات والبحوث– أبوظبي

مليحة من هنا مرت القوافل **٧٤**
خالد حسين صالح منصور
باحث أول– متحف الشارقة للآثار

لكي نتعلم من خبرات الماضي
بناء الأرشيف الوطني للإمارات العربية المتحدة*

د. عبدالله الريس

بهذا العدد من مجلة «ليوا» نحتفل بتحول المركز الوطني للوثائق والبحوث بدولة الإمارات العربية المتحدة إلى «الأرشيف الوطني» الذي يشغل الدكتور عبدالله الريس منصب مديره العام.

عقد أول اجتماع دولي لمسؤولي الأرشيف في يونيو عام ١٩١٠، وشاركت فيه تسع عشرة دولة، بحثت فيه المسائل المهنية الأساسية. ونشرت وقائع ذلك الاجتماع لاحقاً – وعلى أساس ما دار فيه من مناقشات انبرى أحد أنجح خبراء الأرشيف في القرن العشرين – وهو آرثر ج. دوتي – يدون بياناً يؤكد القيمة الأساسية للسجل فقال: «الأرشيف أثمن الأرصدة القومية جميعاً؛ فهو هبة يقدمها جيل للآخر، ويقاس مستوى حضارتنا بمدى محافظتنا عليه» (دوتي: ٥) [١].

لقد كان دوتي غاية في الوضوح بشأن دور الأرشيف في المساعدة على عملية بناء الأمم؛ وذلك من خلال دوره الناشط في بناء مجموعات المكتبة والأرشيف بكندا، وكذا من خلال تشجيعه على دراسة التاريخ بالأسلوب العلمي الصحيح أيضاً. لقد كان – بالنسبة له، ولعصره – للقيام بالمشروعات القومية الكبرى مثل: إنشاء خطوط السكك الحديدية، وحفر القنوات، وتأسيس المراكز المالية، ووضع السياسات الاقتصادية – نظير ثقافي؛ إذ كانت الدولة الجديدة تسعى لفهم ذاتها وخبراتها الثقافية وهي تواجه تحديات المستقبل.

كان للمغفور له – بإذن الله – الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، أول رئيس لدولة الإمارات العربية المتحدة، رؤية مشابهة؛ إذ أسس عام ١٩٦٨ مكتب الوثائق والدراسات لتزويد الدولة بالأدوات التي تكفل الحفاظ على تاريخها، وتتعلم من خبرات الماضي.

* هذا المقال للدكتور عبدالله الريس منشور في كتاب «المتاحف والعالم المادي: جمع شبه الجزيرة العربية». تحرير باميلا إرسكن لوفتاس، إدنبره، هدسون هاوس. وينشر هنا بإذنٍ من الكتاب المذكور.

ولمزيد من المعلومات يرجى الرجوع إلى :www.museumsetc.com

الأرشيف الوطني لدولة الإمارات العربية المتحدة

كان للشيخ زايد اعتقاد راسخ بأن «الأمة التي ليس لها ماض ليس لها حاضر أو مستقبل»[٢].

لقد كان مركز الوثائق والبحوث أول مؤسسة ثقافية نشيطة ذات توجه؛ فالتراث أحد أهم عناصر الهوية، ويسهم في الفهم الاجتماعي، ويدعم القيم، ويؤكد مغزى التقدم الاقتصادي القائم على البينة. وهكذا اتسعت مهمة مركز الوثائق والبحوث عام ٢٠٠٨ عندما تحول إلى المركز الوطني للوثائق والبحوث. وفي مارس عام ٢٠١٤ ظهر دور المركز المتنامي في تغيير اسمه ليصبح «الأرشيف الوطني»، الذي كان له طوال تاريخ تطوره عقيدة موجهة، وهي أن التراث ينطوي على إيحاء فعّال وكفيّ للحاضر والمستقبل، ويستهدف تحقيق التوازن الملائم بين الأصالة والحداثة .

أعيد تنظيم الأرشيف الوطني بعد خمسة وأربعين عاماً من تأسيسه كقوة ديناميكية تعمل لتطوير الحياة الوطنية، وزيادة الوعي بذلك المجتمع النابض. ويستهدف توثيق المجتمع بكل تركيبه وتنوعه، ورصد خبرات الأجيال، وجمع تراثه المتعدد الوسائط وحفظه وتنشيطه باعتباره الذاكرة الاجتماعية، أو «هبة جيل لآخر»؛ فالسجلات الرسمية ومعها الأوراق الخاصة بهؤلاء الذين أسهموا في صنع الحياة بالإمارات العربية المتحدة ، والخبرات المسجلة لكثير من الناس، وتلك الثروة الهائلة من الكتب والصحف المنشورة بالدولة – تجتمع معاً لتقدم صورة شاملة للدولة.

إن مواد المكتبات، والمواد الأرشيفية والمطبوعات، والمخطوطات والخرائط، والصور والمواد الشفاهية، والأفلام، وذلك الحشد المتنامي من الوسائط الرقمية – تكوّن معاً التراث الوثائقي للمجتمع. والكلمات التي دَوَّنها السابقون، والروايات التي تناقلتها العائلات، وصور وأوجه أساليب الحياة التي اندثرت – توفر اتصالاً مباشراً بين الماضي والحاضر، وتساعدنا وتساعد الأجيال القادمة على فهم أصولنا، وإدراك استمرارية التقاليد والقيم، وتعرّف مواطن القوة التي نواجه بها المستقبل.

وإزاء تلك المهمة، والدور الاجتماعي الرئيس فإن الجهود المجتمعة للأرشيف الوطني لا تقتصر على دعم البحوث فحسب؛ بل تعمل أيضاً لتوفير مورد وطني دائم ينطوي على قيم شتى ، ويتوغل في المستقبل. إن ذلك المورد الشامل ذا الوسائط المتعددة أمر حيوي للتعليم والبحث في كافة المستويات. وهو – شأن كافة الأرشيفات الوطنية – يوفر الأسس القانونية للمجتمع الحديث؛ فالسجل الأرشيفي يوثق المواطنة والدستور، ونشأة السياسة العامة وتطورها، والتعبير الخلاق والمعارف، والأحوال البيئية والأراضي، والمعاهدات والسيادة والحدود. وما ذلك في الواقع إلا ذاكرة اجتماعية . إن التراث الوثائقي رصيد قومي أساسي، وغالباً ما يكون فريداً بقدر ما هو هشّ، يحتاج إلى المحافظة عليه والاعتناء به، وينطوي ذلك على تحدٍّ لا مفر منه، ويزداد صعوبة بسبب الحاجة الإضافية إلى العناية بالسجلات الإلكترونية، والحفاظ على سلامتها ومصداقيتها باعتبارها أدلة تتوغل في المستقبل.

يحتاج توثيق مجتمع تقدمي حديث إلى إستراتيجية لتطوير عملية الجمع تتسم بالإبداع والمرونة والشمول، [٣] وتبدأ بفهم التاريخ المركب للمنطقة، وتعرّف السلطات والحكومات والتجار، والملاحين، وغيرهم من أصحاب المصالح الاقتصادية الذين أنشؤوا تلك الوثائق.

سيطر العرب –منذ ظهور الإسلام وحتى القرن السادس عشر– على التجارة البحرية القادمة من الهند عبر مسالك الخليج العربي والبحر الأحمر. وبسبب الصلة الوثيقة بين مغاصات اللؤلؤ والأسفنج في الخليج العربي وطرق التجارة عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر جذبت التجار من كل من الشرق والغرب. وكان البرتغاليون أول الأوروبيين الذين توغلوا في المحيط الهندي والخليج العربي في مطلع القرن السادس عشر، وتبعهم الهولنديون والبريطانيون بواسطة شركتي الهند الشرقية، وهو ما أشعل التنافس التجاري بينهم، وازداد الأمر تعقيداً بسبب الصراع البريطاني الفرنسي من أجل السيطرة على التجارة مع الهند.

بدأت العلاقات الرسمية بين بريطانيا ومشيخات ساحل الخليج بعقد المعاهدات العامة عام

١٨٢٠ ، ثم عُززت تلك العلاقات في القرن التاسع عشر بسلسلة من اتفاقيات الهدنة البحرية. وبعد عقد معاهدة السلم البحري الدائم عام ١٨٥٣ عرفت مشيخات الخليج باسم «الإمارات المتصالحة». وباتت بريطانيا القوة العظمى في الخليج بعد عقد الاتفاقيات المطلقة مع الشيوخ المتصالحين عام ١٨٩١ حتى انسحبت من المنطقة عام ١٩٧١. واكتسبت المشيخات أهمية تجارية جديدة باكتشاف النفط في العراق ومناطق أخرى في شبه الجزيرة العربية في القرن العشرين، وهو ما أدى إلى منح الامتيازات النفطية المبكرة في أبوظبي عام ١٩٣٩. وتأخر الإنتاج الجدي قليلاً، وبدأ تصدير النفط عام ١٩٦٢. وفي عام ١٩٦٨ أعلنت بريطانيا عزمها إنهاء العمل بالمعاهدات،وبمبادرة من الشيوخ وضع اتفاق الاتحاد في ذلك العام الأساس لقيام دولة الإمارات العربية المتحدة في ديسمبر عام ١٩٧١.

إزاء ذلك التاريخ المركب واصل الأرشيف الوطني جهوده لرصد المعاهدات والخرائط، والمراسلات والسجلات التجارية والبحرية والعسكرية ونسخها من كافة الأرشيفات ذات الصلة بالمنطقة. وقد تعاون في ذلك الجهد المضني الأرشيف العثماني، وكبرى الأرشيفات في البرتغال وهولندا ، وفرنسا والمملكة المتحدة؛ إذ حُدّدت أماكن وجود الوثائق ذات الصلة بمنطقة الخليج، ونسخت. وقد اتضح أن الأرشيف الوطني للمملكة المتحدة مصدر أساسي، وهو ما يبين العلاقات التاريخية الوثيقة. وتوضح الخرائط التي رسمها مواطنون من تلك الدول كيف دخل الخليج في الوجدان الأوروبي تدريجياً.

توفر المراسلات الدبلوماسية والمعاهدات أدلة مباشرة على العلاقات التي نشأت وتطورت، وعلى أثر الموقع الإستراتيجي للخليج في الإمبراطوريات الأوروبية. أما سجلات الملاحة والتجارة فإنها تلقي الضوء على العلاقات الشخصية للموظفين في الإمبراطوريات، والمفاوضين التجاريين، والرحالة؛ فهي تطرح الانطباعات الخارجية عن الحياة في الإمارات. وفي القرن العشرين أوضحت الصور والأفلام التي تظهر الوحدات العسكرية المتمركزة حول الخليج المناظر الطبيعية قبل أن تزحف عليها التطورات والتغيرات التي حدثت في الخمسين عاماً الماضية. ونسخت وثائق تكميلية من المصادر الرسمية في: ألمانيا والهند، وإيران واليابان، وروسيا وتركيا، والولايات المتحدة الأمريكية والفاتيكان، وهي تضم مجموعة كبيرة وهامة من الموضوعات ذات الصلة بالمنطقة على مدى خمسة قرون. وفي فبراير عام ٢٠١٤ اتخذت رسمياً الترتيبات اللازمة لنسخ الوثائق الموجودة في الأرشيف الإيطالي. ولسوف توفر تلك المجموعة المتنامية مورداً فريداً وعظيماً لدراسة تاريخ منطقة الخليج بأسرها. وقد عبر سمو الشيخ منصور بن زايد آل نهيان، نائب رئيس مجلس الوزراء ، وزير شؤون

الرئاسة– عن الأهمية المتواصلة لذلك الجهد؛ وذلك بمرافقته لصاحب السمو رئيس الدولة في زيارته الرسمية للمملكة المتحدة في إبريل عام ٢٠١٣ التي شملت زيارة للأرشيف الوطني البريطاني. وقد دعمت تلك الزيارة الروابط الوثيقة بين أرشيفي المملكة المتحدة، والإمارات العربية المتحدة، ومهدت لإمكانية الرقمنة الممنهجة للمزيد من السجلات.

شرعت الإمارات العربية المتحدة تبحث –كالعديد من الدول– عن السجلات ذات المصداقية والمتعلقة بماضيها، والموجودة لدى القوى الإمبريالية القديمة، واستعادت كمّاً هائلاً من تلك الوثائق، وأخضعتها للبحث الدقيق، وكما هو الحال في بلدان أخرى يجد الباحثون أن السجلات – مهما بلغت أهميتها ومقدار ما تكشف عنه من معلومات – تحتاج إلى التحليل الدقيق؛ لأن غالبيتها نشأ على أيدي آخرين؛ إذ لم تسمع الأصوات المحلية آنذاك. وتطرح الصور المتوفرة وجهات نظر الزوار، ولكن الأرشيف الوطني – وقد جمع تلك الوثائق – قد أدى خدمة ضرورية لكل من يهمه الأمر في المنطقة ، وأنشأ أساساً متيناً لتوثيق المزيد من جوانب المجتمع الأحدث ووقائعه.

الأرشيفات الحكومية:

يركز الدور الأرشيفي الحيوي في تحديد السجلات الرسمية للحكومة وحفظها؛ فالأرشيف عبارة عن وثائق تنشأ عن النشاط اليومي، وتحفظ رسمياً كسجل لذلك النشاط . وتُحفظ تلك الوثائق في السياق الذي نشأت فيه، وتعدّ في مختلف الهيئات التي حفظت بها الدلالة الفريدة على العمل الرسمي ، واتخاذ القرارات، وإجراء المعاملات؛ ففي ظل المسائل القانونية بشأن دور الحكومة يتعين أن تحافظ الوثائق على نزاهتها وصحتها لتكون عند الحاجة أدلّة في السياق القانوني، وإضافة إلى ذلك هي– كدلائل – أمر أساسي وحيوي باعتبارها الأساس المقبول للدراسة التاريخية في الكثير من التخصصات؛ فقد نشأت الطريقة الأرشيفية استجابة للحاجة إلى الحفاظ على الوثائق وعلى محتواها من المعلومات، وعلى السياق أو المضمون الإداري أيضاً، الذي نشأت بمقتضاه . والوثائق – شأن القطع الأثرية – تستمد صحتها ومصداقيتها ومغزاها الكامل من مضمونها، والباحث أو المحكمة بحاجة إلى معرفة ذلك المضمون حتى يتسنى له فهم ما تعنيه الوثيقة، والتحقق من مصداقيتها. وثمة مبدآن أرشيفيان رئيسان: الحفظ، والوصف، وكلاهما قصد به إبراز ذلك المضمون. والحافظة تضم كافة السجلات – في أي من الوسائط المستخدمة – التي تنشأ أثناء العمل اليومي في أي كيان إداري كبير. وقد تضم الحافظة مستويات من حوافظ – حوافظ فرعية – تعكس الهيكل التنظيمي والوظائف الإدارية في المؤسسة ، وذلك شيء يجب احترامه وحفظه في إدارة

السجلات على المدى الطويل. وعلى الأرشيف أيضاً احترام نظام السجلات، أو الطريقة التي حفظت، بها ونظمت، واسترجعت في المكتب الذي نشأت فيه.

ويضمن هذان المبدآن معاً الحفاظ على سياق إنشاء السجلات وعلاقاتها بمختلف سلاسل السجلات وغرضها الوظيفي؛ وبذلك يستنير هؤلاء الذين يسعون لفهم مضمون السجل ومعناه. ويمكن البحث والفهرسة لتوفير إتاحة فكرية للسجلات، والتغلب على القصور في الهياكل التنظيمية الأصلية. ويلاحظ أن برامج الجمع التي تقوم بها الجامعات قد تزيح سجلات رسمية أو شبه رسمية – مثل الأوراق الرئاسية – للاحتفاظ بها في مكتبة بعيدة؛ وبذلك تدمر جزءاً أساسياً من السياق والمعنى، وتترك ثغرات في التراث الوثائقي للشعوب، ولكن ذلك لا يمكن أن يحدث في الإمارات العربية المتحدة حيث يحول الدور المركزي المنظور للأرشيف الوطني دون ذلك. ولعله شرف كبير أن يُقبل سجل أعمال الشخص طوال حياته للحفظ في الأرشيف.

لقد اتخذ الأرشيف الوطني مدخلاً استباقياً في نهوضه بمسؤولياته بالتعامل على المدى الطويل مع سجلات الحكومة الاتحادية، وحكومات الإمارات المختلفة، والمؤسسات العامة والقضاء، والكيانات التابعة للحكومات المحلية. وقد اتخذت خطوة أساسية في ذلك الصدد عام ٢٠٠٨ عندما صدر القانون الاتحادي رقم (٧)، الذي تحول به مركز الوثائق والبحوث إلى المركز الوطني للوثائق والبحوث؛ فأصبح كياناً وطنياً تماماً، وحددت مهمته باعتباره المستودع الرسمي لحفظ سجلات حكومة الإمارات العربية المتحدة. وقد آلت تلك المهمة إلى الأرشيف الوطني، وتشمل أنواع السجلات في الهيئات الحكومية الاتحادية والمحلية كافة. ويقتضي الأمر كذلك أن يقوم الأرشيف الوطني بتلك المهمة وفق المعايير الدولية، ويضمن إتاحة الأغراض العامة في الأوقات كلها.

وحتى يتسنى للأرشيف الوطني القيام بتلك المهمة أطلق برنامجاً لزيارة كل دائرة حكومية أو هيئة لفحص الحالة الفعلية لسجلاتها وتنظيمها. وعلى أساس تلك الزيارات يعِدّ الأرشيف الوطني تقييماً مهنياً لحالة السجلات وتنظيمها، ويقدم العاملون فيه توصياتٍ لتحسين طرائق الخزن وأماكنه، وتذليل الصعاب، ومنع خطر نشوب الحرائق، وتطبيق أساليب التحكم في البيئة لإطالة عمر السجلات. ويقدمون– بما لديهم من خبرة وما اكتسبوه من مصداقية– المشورة في نظم الفهرسة المستخدمة، وتوحيدها في مختلف الدوائر. وتقوم لجنة عامة بدراسة تقاريرهم، وتسعى لضمان أن تأخذ الدوائر ما احتوته من توصيات مأخذ الجد. وتُعَدّ الترتيبات

اللازمة لنقل السجلات الإدارية إلى الأرشيف الوطني عندما لا تكون الدوائر بحاجة إليها في تصريف أعمالها الراهنة. وتُفحص السجلات لتحديد قيمتها الدائمة للأغراض القانونية أو لأهميتها التاريخية، ويقوم بتلك المهمة أرشيفيون مدربون على إدارة المعلومات، ولهم القدرة والمعرفة لمختلف استخدامات السجلات. وبصفة عامة فإن نسبة مئوية ضئيلة من إجمالي السجلات التي تنشأ في مؤسسة حديثة أو تأتي إليها هي التي تكون ذات قيمة دائمة، على حين يمكن إعادة تدوير باقي السجلات حين تصبح بلا قيمة إدارية أو قانونية. وذلك ينطوي على اتخاذ قرارات دقيقة اعتماداً على الخبرة واستناداً إلى السوابق الدولية.

تمكن الأرشيف الوطني بعد خمس سنوات من الجهد المتواصل من تنظيم وتقييم ٨١٪ من سجلات الدوائر والمؤسسات الحكومية الاتحادية والمحلية في الإمارات العربية المتحدة. وقد استعرض المسؤولون برامج السجلات لدى ٣٩ هيئة حكومية في أبوظبي، و٢٤ في دبي، و٢٤ في الشارقة، و٣ في رأس الخيمة، و١٠ في الفجيرة. ويعتزم إرسال بعثة من الخبراء إلى ستة عشر أرشيفاً في عجمان وأم القيوين للمساعدة على تنظيمها في المرحلة المقبلة، وبعدئذ يكون قد أتم مهمة تقييم السجلات وإعداد التقارير لـِ ١٦٧ هيئة في الإمارات العربية المتحدة، وسيزور ما تبقى من هيئات وعددها ٣٩ هيئة.

على المستوى الدولي شغلت المشاكل ذات الصلة بإطالة عمر السجلات الإلكترونية بال العاملين بمهنة الأرشيف، والمجتمع الأكاديمي والصناعة، ويسعى هؤلاء لإيجاد حلول عملية لتلك المشاكل. وهناك برامج ومعدات حاسوبية في العديد من الهيئات والأشكال، وهي تتغير بسرعة هائلة لا يسعد بها سوى مسؤولي الحسابات. ويضاف إلى ذلك أن إمكانية تهيئة البرامج بحيث تعمل بنظامين: أحدهما قديم، والآخر حديث – محدودة تماماً؛ فتطبيقات البرامج الجديدة تضم معلومات من مصادر كثيرة ، وتوفر الأساس لاتخاذ القرارات، ولكنها لا تنشئ وثائق دائمة. والأجهزة أيضاً تستخدم أقراصاً مرنة ذات أحجام متباينة، وإذا كانت هذه اليوم هي إصبع الذاكرة (فلاش ميموري) فسوف تكون غداً وسيلة جديدة. ومن ناحية أخرى أصبحت أجهزة الحاسب الآلي المنتجة منذ عقود قليلة «خردة» وبدأت كاميرات التصوير تتلاشى، على حين تتسع دائرة استخدام شبكة المعلومات العنكبوتية «إنترنت» بدرجات عالية، وأصبح سيف «البيانات الكبرى» مصلتاً على رقابنا. ويواجه جميعنا – في الحكومة أو كأفراد – تحديات كبيرة، كأنْ نجد مسودة تقرير هام أُعِدّ قبل خمس سنوات، أو تحديد مكان أو صور أو فيديوات عائلية قديمة. ونظفت حسابات البريد الإلكتروني، واندثرت النقرات التي لا يزيد عمرها على بضعة أسابيع. وبالمثل لاتترك خدمة الرسائل في أجهزة

«بلاك بيري» أثراً البتة، ومواقع الحكومات والمؤسسات تتغير بسرعة. وطريق المعلومات السريع الذي بدا يوماً واعداً جداً يتهاوى في أذهاننا، ولكن العصر الرقمي يأتي بحلول؛ إذ تقل تكلفة الخزن الشامل، في حين تمكن أدوات البحث الذكي في الشبكة العنكبوتية من البحث في مستودعات هائلة تكثر فيها البيانات والسجلات غير المنظمة. ومن ناحية أخرى تربط البرامج الجديدة المصممة لخدمة المؤسسات بين كافة الوظائف داخل الحكومة وعبرها، وتساعد على توحيد المصطلحات والبيانات واسترجاعها على المدى الطويل، ولكن سلامة السجل وصحته ومصداقيته –كما أسلفنا – هي ما يميز الوثيقة باعتبارها سجلاً؛ فهي ليست مجرد بيانات فضفاضة؛ بل بيانات منظمة وذات مضمون يؤكد أنها سجل؛ فللخطاب شكل محدد وسمات محددة تثبت بوضوح أنه خطاب؛ ويحمل تاريخاً وتوقيعا. وبالمثل فإن لتقرير التدقيق الحسابي شكله الخاص الذي يؤكد مصداقيته. وينطبق الشيء ذاته على التسجيل، والملفات، والإقرارات؛ لذا يجب الحفاظ على كافة سمات الوثيقة مع المضمون الإداري الذي نشأت وأدّت دوراً فيه.

لقد تابع الأرشيف الوطني عن قرب كافة التطورات الدولية في مجال إدارة الأرشيف والسجلات، التي تمت على أساس المعايير التي حددتها المؤسسة الدولية للمقاييس «أيزو»، فكل أعمال الأرشيف الوطني تقوم على المعايير الدولية الراهنة، ويحظى بمرونة كافية تمكّنه من استيعاب المتغيرات، ولاسيما أن المعايير تتطور بتطور التقنيات. والأرشيف يجد نفسه في خضمّ برنامج لإدارة السجلات الإلكترونية يُنفذ في كل الهيئات الحكومية، ويقوم على أساس اتباع أفضل الممارسات المتعارف عليها من أجل بناء نظام لإدارة الوثائق ينطوي على أسلوب مقبول لفهرسة السجلات على أساس جداول الاحتفاظ بها والتصرف فيها، التي تحدد وفق أنواع وظائف السجلات[٤].

لقد بات ممكناً نقل السجلات الإلكترونية إلى الأرشيف الوطني مباشرة، حيث تفحص للتخلص من الفيروسات، ثم تُحوَّل إلى هيئة إلكترونية موحدة لحفظها واسترجاعها على المدى الطويل. وأما أقدم السجلات فإن لدى المركز خدمة متطورة تقوم على رقمنة السجلات الورقية الأساسية ومسحها ضوئياً لإدخالها في برنامج إدارة الموارد «ERM» المرتبط ببرامج أحدث لإدارة السجلات. وتحترم عملية التحويل تلك الحاجة إلى الحفاظ على قيمة الوثيقة والملفات باعتبارها دلائل. وليس للغالبية العظمى من السجلات الحكومية أي قيمة إذا نظرنا إليها باعتبارها مجرد قطع أثرية، لكنها ذات قيمة معلوماتية ترصدها عملية الرقمنة. ويُبقى على تلك السلاسل من الوثائق التي تعدّ ذات قيمة تاريخية عليا في هيئتها الورقية، على حين

تعدّ نسخة مرقمنة لأغراض البحث ، وباستخدام تقنيات البحث المتقدمة يسهل استرجاع الوثائق لاستخدامها في أغراض البحث.

وقد أثبتت الخبرات الفنية والإدارية للأرشيف الوطني – بالتعاون الوثيق مع مختلف الدوائر – أهميتها في مختلف الهيئات الحكومية؛ فالبرنامج الذي ينفذه الأرشيف الوطني يوجّه نظر المسؤولين إلى السجلات التي تعدّ تراثاً ، وهي في بعض الحالات مخزونة في ظروف غير ملائمة؛ ولذا فإن البرنامج ينقذ السجلات الورقية من التدهور المتواصل؛ فيتلاشى الإهمال والعشوائية من عملية بناء الذاكرة الوطنية، ويرجع الفضل في ذلك إلى النظر بدقة إلى الأغراض الرئيسة للسجلات، وتقدير قيمتها المتواصلة حتى يتسنى اتخاذ القرارات المهنية الملائمة لها. ويضاف إلى ذلك أن التصرف في الملفات التي لم يعد لها حاجة يوفر نفقات حفظها. ويسهل تحويل السجلات الضرورية إلى هيئات إلكترونية عملية استرجاعها؛ إذ لم يعد هناك حاجة إلى البحث في صناديق تضم سجلات غير مفهرسة وغير منظمة. وقد ترتب على ذلك أنه بات بوسع الدوائر الحكومية الرجوع إلى ذاكرتها التنظيمية عند التعامل مع المستقبل، وأن الباحثين والجمهور أصبحوا مطمئنين إلى وجود سجل رسمي شامل في أحسن حالة ممكنة.

المجموعات الخاصة:

إذا كان للسجلات الرسمية أهمية كبرى فإنها توثق جانباً واحداً فحسب من المجتمع الحديث النشيط، ولكن هناك جوانب أخرى لا تقل أهمية؛ فعلى سبيل المثال: تضم وثائق قصر الحصن منذ عام ١٩٢٣ – ولاسيما في عهد الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان (حاكم أبوظبي ١٩٢٨–١٩٦٦) أرشيفاً محلياً هاماً لإمارة أبوظبي. وكان من حسن حظ الأرشيف الوطني أن حظي بثقة الواهبين وجامعي الوثائق، وبذلك يعمل بجد لجمع الأوراق والسجلات من المصادر الخاصة. فعلى سبيل المثال: أهدت «جرترود دايك» الممرضة الكندية التي أسهمت في إطلاق الرعاية الصحية في الإمارات العربية المتحدة في خمسينيات القرن الماضي– خطاباتها وغيرها من الأوراق التي تحفظ كجزء من الرواية الوطنية إلى الأرشيف الوطني. وبالمثل تمكن الأرشيف من جمع سجلات مماثلة من المؤسسات الخاصة والأفراد، ويحتفظ بها في هيئاتها الأصلية، ويتيحها للباحثين ، ويعرضها في المعارض حسب الأحوال.

مكتبة الإمارات:

في مكتبة الإمارات مجموعات كبيرة تعدّ مورداً شاملاً للبحث، وهو متاح للباحثين

والجمهور. وكان الهدف الأساسي من المكتبة: اقتناء الموارد المنشورة والمتاحة، التي تتناول الإمارات العربية المتحدة، في أي هيئة تكون عليها، وبأي لغة، ومن أي مكان من العالم. وإزاء المضمون الأوسع للبحث تقتني المكتبة المواد التي تتناول منطقة الخليج العربي، والعالم العربي برمته، والحضارة الإسلامية، والتاريخ العالمي. وهي تشارك في برامج للإهداء والتبادل مع المؤسسات الدولية الكبرى.

وفي ضوء حصيلة خمسة وأربعين عاماً من الاقتناء أصبحت مكتبة الإمارات مورداً ثرياً يضمّ عشرات الآلاف من الكتب، والعديد من الدوريات ، والمقتطفات الصحفية. وفيها كتب وكتيبات نادرة، ومجموعات خاصة، مثل مجموعة الشيخ فالح بن ناصر آل ثاني – وهو من أشهر جامعي الكتب ، وتضم مجموعته ٢٠٧ كتب في التاريخ والأدب العربي.

والمكتبة تشارك في قواعد البيانات الإلكترونية، وفيها مجموعة متميزة من الرسائل العلمية، والكتب الإلكترونية التي تركّز في منطقة الخليج العربي. وتضم المجموعات مواد مرجعية مطبوعة ، وإلكترونية، وفي هيئة وسائط متعددة، وغالبيتها باللغات: العربية، والإنجليزية، والفرنسية، وتوجد مواد بلغات أخرى أيضاً مثل: الألمانية والفارسية، والهولندية والبرتغالية. وثمة خطط لرقمنة المجموعة المتعددة اللغات التي تضم كتباً نادرة؛ وذلك لتوفير مزيد من الإتاحة للباحثين، وضمان المحافظة على المواد الأصلية. وهي مجموعة ديناميكية متنامية وتقتني بانتظام بواسطة الناشرين والمؤلفين، والبحث المتواصل في أسواق الكتب القديمة.

الخرائط والصور الضوئية:

أقام الأرشيف الوطني أخيراً معرضاً ضمّ ما يمكن اعتباره التاريخ الخرائطي لمنطقة الخليج العربي؛ فالخرائط التي عرضت توضح الفهم المتزايد لشبه الجزيرة العربية، وموقعها على طرق التجارة العالمية. وتظهرسيطرة العرب على تجارة الخليج في العصور القديمة وامتلاكهم معارف جغرافية وملاحية متقدمة. وقد جمع الكتّاب والمؤرخون والجغرافيون العرب المعلومات الجغرافية القيمة في العصور الوسطى. وكانت أول خريطة لشبه الجزيرة العربية تلك التي طبعت وصدرت عام ١٤٧٧ في كتاب «الجغرافيا»، الذي ألّفه الجغرافي وعالم الرياضيات الإسكندري كلوديوس بطليموس في القرن الثاني الميلادي.

ظل الشكل الذي رسمت به شبه الجزيرة العربية ، ومواقع وأسماء مختلف الأماكن فيها – يؤثر فيما رُسم لها من خرائط عدة قرون لاحقة. ومن أوائل الخرائط التي تبين الاكتشافات

البرتغالية خريطة برتغالية للعالم حصل عليها سراً الإيطالي ألبرتو كانتينو في لشبونة عام ١٥٠٢ (ويشار إليها بـ «كانتينيو بلانسفير») وسجلت تلك الخريطة رحلة فاسكو دي غاما الشهيرة للهند. وقد تمكن الأرشيف الوطني من اقتناء مجموعة كبيرة ومتنامية من الخرائط الإقليمية، ومعها أطالس مطبوعة، وصور التقطتها الأقمار الصناعية توثّق تصوّر الناس للإمارات العربية المتحدة، وشبه الجزيرة عامة على مدار القرون.

إن مجموعة الصور تتيح سجلاً بصرياً قوياً للناس والأرض والوقائع في الإمارات العربية المتحدة في القرن الماضي. وقد تأسس قسم الصور الضوئية عام ١٩٧٤ حفاظاً على الصور ذات الصلة بتاريخ البلاد وتطورها. وتتألف مجموعة الصور الضوئية من آلاف الصور في هيئات وأحجام مختلفة. ويؤرخ جزء كبير منها أهم أعمال المغفور له – بإذن الله – الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وأهم الوقائع في عهده. ومن الصور القديمة في الأرشيف تلك التي التقطها القسّ صمويل زويمر عام ١٩٠١ وتصور قصر الحصن (وهو أقدم بناء حجري في أبوظبي)وثمة صورة أخرى التقطها المصور الألماني هرمان بركهارت عام ١٩٠٤، وتصور الشيخ زايد بن خليفة المعروف بـ «زايد الكبير» وهو في مجلسه بقصر الحصن، ويحيط به الشيوخ والمواطنون.

ويواصل الأرشيف الوطني تنمية المجموعة بما يحصل عليه من صور من وكالة أنباء الإمارات التي تأسست عام ١٩٧٦، ومن بعض شركات النفط العاملة بالبلاد، ومن الأفراد المعاونين. واقتنى أخيراً مجموعة من الصور الممتازة الملتقطة من الجو للمنطقة المحيطة بأبوظبي، حصل عليها من عائلة طيار عمل في القوات الجوية البريطانية في فترة ما بين الحربين العالميتين، وكان في الإمارات. وحصل على مجموعات أخرى من مقتنيات المسؤولين البريطانيين الذين خدموا في الإمارات من عام ١٩٠٥ حتى عام ١٩٧٠.

وفي عصر تعاظمت فيه الرؤية يكتسب ذلك السجل الفوتوغرافي أهمية متزايدة؛ إذ يوضح مواقع ومناظر خلت، وأصبحت في طيّ النسيان.

التاريخ الشفاهي:

مع اتساع السجلات التي أنشأتها دول أخرى وأهميتها ، التي تتعلق بالخليج العربي، وكذا السجلات الرسمية فإنهما تسجلان جزءًا من قصة الشعب فقط؛ ولذا فإن ذكريات القدامى والزعماء وكبار السن من المواطنين تلقي ضوءًا وتضفي حيويةً على السجلات الرسمية

الجافة. وثمة أهمية كبرى للتاريخ الشفاهي والروايات التي تنتقل من جيل لآخر؛ فهي تسهم إسهاماً واضحاً في توثيق الخبرات الوطنية، وترسم أسلوب الحياة والتفكير، وتذكرنا وتذكر الأجيال القادمة برؤى مَنْ سبقونا وحكمتهم. وثمة مثل إفريقي قديم يقول: عندما يموت رجل عجوز تحترق مكتبته. وقد أقرّ بذلك صاحب السموّ الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان بإصداره القانون رقم (٧) لسنة ٢٠٠٨ بإنشاء برنامج للتاريخ الشفاهي في الأرشيف الوطني بغرض استكمال المعارف المتوفرة بالفعل، وإبداء المعلومات التي لم تسجَّل من قبل (المادة (١) من التاريخ الشفاهي). وإزاء ذلك التحدي أطلق الأرشيف الوطني برنامج التاريخ الشفاهي عام ٢٠٠٩، بمشورة من مكتبة بانكروفت بجامعة كاليفورنيا الجنوبية في العام الأول. وعلى مدى سنوات قليلة أجريت مقابلات مع أكثر من ٧٠٠ شخص أدلوا بدلوهم فيما يتعلق بعادات شعب الإمارات العربية المتحدة وتقاليده.

اتُّبعت في إجراء المقابلات منهجية واضحة؛ إذ تُعَدّ الأسئلة، ويُحصل على موافقة مَنْ ستُجرى المقابلات معهم، ويجري التسجيل الواضح بالصوت والصورة. ثم تفرغ المقابلة وتُدقَّق لغوياً، وتصبح النسخ المسجلة والمفرغة جزءاً من المجموعة الدائمة في الأرشيف. ويتسلم من تجرى المقابلات معهم نسخة من المادة المفرغة لعرضها على ذويهم . وقد أصبحت تلك المجموعة مورداً كبيراً للباحثين، وسوف تزداد قيمته وأهميته بمرور السنين ؛ فهو في الواقع مكتبة بشرية رائعة.

لقد دأب الأرشيف الوطني على تجربة مداخل وأساليب أخرى لجمع التاريخ الشفاهي؛ إذ يشارك في الكثير من المهرجانات ومعارض الكتب التي تقام في مختلف الإمارات العربية المتحدة، ويجري مقابلات مع العديد من الشخصيات؛ فعلى سبيل المثال شارك قسم التاريخ الشفاهي في مهرجان قصر الحصن الذي أقيم في أبوظبي حيث قام فريق من القسم بإجراء مقابلات في الأستديو الذيم أقيم لذلك الغرض خاصة. وقصر الحصن هذا كان مقراً لحكام أبوظبي ؛ ولذا فإن المهرجان كان فرصة كبيرة لجمع الذكريات والروايات من هؤلاء الذين شاهدوا قيام الاتحاد، وغيره من الوقائع الهامة. وهيأ أيضاً وسيلة فعالة لجذب طلبة المدارس للاطلاع على تراث وطنهم.

أثبت التاريخ الشفاهي أهميته في تحقيق أحد أهداف اليونسكو، وهو الحفاظ على التاريخ غير المنظور للشعوب. وقد ذهب برنامج الأرشيف الوطني إلى أبعد من مجرد جمع الروايات؛ إذ شرع يجمع الأشعار التقليدية، وأغلبها لا يبقى إلا بالرواية الشفهية. وكانت الأغاني

والموسيقى القديمة تسجل كلما أمكن ذلك، أما أنساب العائلات والعشائر والقبائل فتدعم الإحساس بالانتماء ، وتؤكد أن العادات الراهنة محفورة في أعماق الثقافة التي تجمع كافة أبناء الإمارات. وقد أصبحت المجموعة الآن ثرية بأصوات الأقاليم ولهجاتها، وهو ما يتيح بدء العمل في جمع لهجات الإمارات العربية المتحدة في معجم واحد. وقد أصبحت مجموعة التاريخ الشفاهي المتنامية جزءاً من الذاكرة الوطنية، وتمثل صوت الشعب وتنقله.

إحياء المجموعة:

تعدّ مجموعات الأرشيف الوطني ذاكرة الإمارات العربية المتحدة ؛ فهي باتساعها تضم خبرات الأجيال السابقة وتأملاتهم ؛ ولذا ينبغي أن تكون متاحة بالقدر الكافي للجيل الحاضر وأجيال المستقبل. والحفظ أحد جوانب تلك العملية؛ ولذا وفر الأرشيف الوطني وحدات حديثة، وزوّدها بأحدث التقنيات لتحقيق ذلك الغرض، ولكن المجموعات – بكل ما تتسم به من فردية وقيمة – لا يقصدبها أن تخزن ساكنة على رفوف مؤمنة. ولكي تصبح «هدية جيل لآخر» على الجيل الحالي أن يكون قادراً على تعرّف تراثه، ويقوم بفحصه ودراسته؛ فهم بحاجة إلى معرفة ذاتهم ومجتمعهم الذي يرثونه وهم يتحركون قدماً عبر القرن الحادي والعشرين.

يقوم الأرشيف الوطني بوصف مختلف مجموعاته وفهرستها وتبويبها وفق المعايير الدولية، والفهارس والأوصاف التفصيلية متاحة إلكترونياً، وفي غرف القراءة المريحة أيضاً التي يعمل فيها خبراء مراجع قديرون، وترحّب تلك الغرف بكل من يودّ زيارتها، ولكن ذلك يميل إلى أن يكون دوراً سلبياً ينطوي على انتظار قدوم الباحثين والأساتذة، والهواة المتحمسين. وينتهج الأرشيف الوطني أساليب تقدمية واستباقية كما هو الحال في كافة جوانب برامجه، وامتد ذلك الالتزام عالمياً حين أقدم على مبادرة – بمشاركة اليونسكو، والمجلس الدولي للأرشيف– تنطوي على تأسيس مصدر متطور قائم على برامج حاسوبية للشبكة العنكبوتية، ويتضمن مستويات الوصف المقبولة التي تستخدمها الأرشيفات في كل أنحاء العالم ، وهو ما يعرف باسم إتاحة الذاكرة «إيكا – أتوم» (ICA-AToM). وقد اختُبر ذلك المصدر فيما لا يقل عن عشر لغات ، وتبناه أكثر من مئتي مؤسسة، وعدِّل بحيث يمكن إدارة قواعد البيانات الضخمة التي تضم بيانات العديد من المؤسسات الوطنية؛ وذلك لتنظيم مقتنيات الأرشيفات والمكتبات. ويواصل ذلك المصدر نموه وتطوره بالحوار الجاد مع مستخدميه، ودعم من مؤسسيه . وقد نشرت النسخة «٢–٠–١» في ديسمبر عام ٢٠١٣.

أما تواصل الأرشيف الوطني مع المجتمع فإنه يأخذ عدة أشكال متكاملة؛ فهو ينفذ منذ مدة طويلة برنامجاً للنشر يتضمن إصدار سلسلة من الأعمال التاريخية، والوثائق المحررة في مجلدات تتميز بمنهجها العلمي، وتصميمها الجيد. ويصدر مجلة «ليوا» كجزء من جهوده للنهوض بالبحث ونشر المعارف في تاريخ الإمارات العربية المتحدة. ويضاف هذا البرنامج إلى برنامج شامل للمعارض التي تستكشف بعمق كثيراً من جوانب تاريخ الإمارات العربية المتحدة. وتتضمن تلك المعارض السجلات النصية، والخرائط والصور الفوتوغرافية، والأفلام والتسجيلات الصوتية ، وكلها يساعد الجمهور والمدارس والجامعات على تفهم تنوع المجموعات المتاحة لهم ومداها.

وأقام الأرشيف الوطني علاقات عمل أيضاً مع المتاحف داخل الدولة، ويعيرها الوثائق – ولاسيما الصور والأفلام – وبذلك يتيح المجموعات قدر المستطاع مع الحفاظ على المواد الهشة. وأعدّ أيضاً نسخاً جيدة من المقتنيات ، التي تستخدم في المعارض المتنقلة التي تنظم في إطار الاحتفالات الشعبية الكبرى؛ فالمعارض تخدم التعريف بدور الأرشيف الوطني ومقتنياته بطريقة مشوقة تجذب الكثير من الزوار. وتزداد الجاذبية بعرض فيلم ثلاثي الأبعاد يلقي الضوء على عمليات الأرشيف منذ إنشاء الوثائق مروراً بحفظها بمختلف الوسائل والأساليب ، ثم استخدامها في البحث لبيان أن التاريخ يعيش خارج الكتب الدراسية؛ ولذا فإن زيارة الأرشيف تكشف غموض محتواه وأغراضه وعملياته ، وتشجع على تكرار الزيارة، وإجراء المزيد من البحوث.

لقد نجح موظفو الأرشيف الوطني في جذب تلاميذ المدارس بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم، علماً بأن الأرشيف الوطني يتعاون مع الوزارة في إعداد المناهج والاستعانة بمجموعات الأرشيف لدعم ما يطرح من مواد في غرف الدراسة. ويجري التعاون بين الطرفين بتنظيم زيارات للأرشيف الوطني. ويضاف إلى ذلك أن الكتب التي تصدر عن الأرشيف الوطني جديرة بالدراسة على المستوى الجامعي في إطار المساقات التي تتناول المنطقة. وأنشئت مسابقة باسم «المؤرخ الشاب» بالاشتراك مع وزارة التربية والتعليم اجتذبت الكثير من التلاميذ من هواة البحث التاريخي.

ولطالما نُظر إلى موقع الأرشيف الوطني على الشبكة العنكبوتية على أنه من المواقع الرائدة عالمياً؛ فهو مزدوج اللغة، وتندمج فيه الأفلام مع النصوص المزدوجة اللغة، ومحتواه الشاسع وأداة البحث الخاصة به يسهلان عمل الكثير ممن يحرصون على اكتساب المزيد من المعرفة

عن الخليج العربي. وقد خطا الموقع خطوة جديدة حين أدخل تطبيقاً مبتكراً يطرح وقائع شيوخ الإمارات العربية المتحدة ، وهو تطبيق يمكن الحصول عليه من محلات «آبل» وتشمل تلك الوثائق الأنشطة اليومية والاجتماعية، والاقتصادية والإعلامية، والأنشطة العامة للشيوخ في فترة ١٩٦٩ –٢٠١٠، ويُبحث فيها وفق الموضوعات، أو التاريخ، أو المصدر باستخدام الهاتف الشخصي «آي فون» ، واللوح الإلكتروني «آي باد». ويضم التطبيق مقالة فيما حدث في يوم محدد. ويستمد مادته من العديد من المصادر ذات المصداقية في مجموعات الأرشيف الوطني، وهو ما يبرز الأدوار الرئيسية للأفراد ذوي الرؤية في تكوين المجتمع الحديث وقيادته. وما ذلك إلا بداية لإطلاق أرشيف متفاعل على الشبكة العنكبوتية «Web 3.0»، وهو الجيل القادم للإنترنت الذي سيجعل البحث أسرع وأسهل. وسوف يضمن أحدث تقنيات الهاتف المتحرك أن يكون الأرشيف الوطني هو الذاكرة الوطنية بكل ما تحمل العبارة من معنى: ذاكرة تنمو نمواً ممنهجاً، وتستخدم كافة الوسائط ذات الصلة لتوثيق المجتمع، وتتاح بأسلوب ملائم لكافة من يريد أن ينهل منها. ولعل روح المغفور له – بإذن الله – الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، مؤسس الأرشيف الوطني – تسعد إذ ترى في برامج البحث، والبرامج المتاحة على الخط المباشر، والبرامج التعليمية ما يحقق رؤيته عندما تتمكن الأجيال المتعاقبة من استكشاف التراث الرائع لبلادهم والتعلم منه. وذلك هو غرض إستراتيجية الجمع الجادة التي يسير عليها الأرشيف الوطني.

هوامش:

(١) السير آرثر ج. دوتي، كبير أمناء الأرشيف بكندا، في أعوام ١٩٠٤ – ١٩٣٥، وقد كُتِب عام ١٩١٦ ونُشِر في مجلة «الأرشيف الكندي وأنشطته»، وحفر على تمثاله الرسمي، ١٩٣٧.

(٢) ألهم ذلك القول الشهير عملاً فنياً حاز جائزة، وأطلق في أبوظبي في ٢٠١٣/١٢/٢ م انظر:

www.uaeinteract.com/docs/artistick_tributeto_zayed%E2%80%99s_vision_unveiled/53995.html

(٣) تنطوي إستراتيجية الأرشيف الوطني في الجمع على سياسة ديناميكية حية متحررة من قيود البيروقراطية. وهي إستراتيجية متعددة الجوانب، وتعكس مختلف نواحي المهمة المحددة للأرشيف الوطني. أما السجلات الحكومية فتنطبق عليها المعايير الأرشيفية المعتادة، مع تحديد ٢٪ – ٣٪ من السجلات الحالية التي لها قيمة على المدى الطويل، وفي الوقت نفسه التصريح بالتصرف في باقي السجلات بعد مرور فترات ملائمة. وفيما وراء تلك المهمة القانونية الصارمة يكون الاقتناء الذي يحقق أغراض الأرشيف، ومنها استخدام كافة الوسائط لتوثيق المجتمع، ولكن الاقتناء ينطوي على انتهازية إستراتيجية بحكم طبيعة التبرعات أو المبيعات الأرشيفية؛ إذ يعتمد طرح الأفراد والعائلات والمؤسسات لما بحوزتها من سجلات فريدة على الكثير من العوامل الشخصية. وأما اقتناء المجموعات من القطاع الخاص فبذلت الجهود للاتصال بالمسؤولين البريطانيين السابقين للحصول على أي وثيقة بحوزتهم هم وعائلاتهم. وتُشترى المجموعات الهامة أيضاً. وأما التاريخ الشفاهي فتحدد المجموعات، والأشخاص ممن لهم صلة بالموضوع بشكل ممنهج، وينصب الأرشيف الوطني شباكه أيضاً لاصطياد الذكريات والحكايات، والأقوال والأغاني، والأهازيج من كافة قطاعات المجتمع وفئاته، ويحفظ كل ما يمكن جمعه، وذلك جزء من رؤية الأرشيف الوطني ونشاطه في مختلف الجبهات، وسعيه لإنشاء سجل فريد مستمد من العديد من المصادر.

(٤) لتعرف مثل تلك النظم انظر – على سبيل المثال – إدارة المحتوى www.opentext.com

References

Al Nahyan, Mansour bin Zayed. Presidents' Message. Available at: http://www.na.ae/ncdr/English/aboutCdr/chairmanMessage.aspx (Accessed 3 February 2014).

Al Nahyan, Zayed bin Sultan. Sheikh Zayed in Quotes. Available at: http://www.uaeinteract.com/docs/Sheikh_Zayed_in_quotes/18411.htm (Accessed 3 February 2014).

Doughty, Arthur G. The Canadian Archives and its Activities. Ottawa: F. A. Acland, 1924.

Oral History. Available at: http://www.ncdr.ae/UAEoralhistory/Default_En.aspx (Accessed 3 February 2014).

Websites

Access to Memory (AtoM): www.ica-atom.org/

International Council on Archives: www.ica.org

International Standards Organization: www.iso.org

The National Archive of the United Arab Emirates: http://www.na.ae/ncdr/English/index.aspx

معاهدة الصداقة والتعاون بين المملكة العربية السعودية والمملكة المصرية مايو – نوفمبر ١٩٣٦

د. أشرف صالح محمد سيد

ملخص:

موضوع هذا البحث هو معاهدة الصداقة والتعاون التي عُقدت بين المملكة العربية السعودية والمملكة المصرية في ٧ مايو و ١٨ نوفمبر ١٩٣٦. وتفصل هذه المعاهدة بين مرحلة توترت فيها العلاقات بين البلدين، ووصلت إلى حد القطيعة السياسية منذ سنة ١٩٢٦، ومرحلة أخرى عادت فيها العلاقات الطيبة أفضل مما كانت عليه قبل ذلك، وبدأت منذ سنة ١٩٣٦، وظهر فيها مدى الارتباط الوثيق بين البلدين والشعبين ومدى تأثيرها في العالم العربي. وقد أُعِدّ هذا البحث وفق المنهج العلمي التاريخي التحليلي الذي يقوم على أساس عرض الوقائع التاريخية، واستنباط الحقائق منها، وما يترتب عليها من استنتاجات من خلال الشرح والتفسير.

تمهيـد:

العلاقات المصرية السعودية قديمة قدم التاريخ؛[١] إذ كان البحر الأحمر معبرًا للتجارة المصرية مع الحجاز،[٢] كما كان معبرًا للقبائل العربية المهاجرة من الجزيرة العربية إلى مصر،[٣] وانتقلت معها الثقافة العربية الإسلامية، والرسالة المحمدية، حتى صارت قلوب المصريين تهفو إلى زيارات تلك الأراضي المقدسة، وتحرص على أن تكون لها أحسن العلاقات معها.

وتعرضت العلاقات المصرية السعودية لفترات من التوتر وأخرى من الصداقة والتعاون كما تتعرض العلاقات الدولية، وفي أثناء الصراع بين الملك عبد العزيز بن سعود (١٢٩٢ – ١٣٧٢هـ ، ١٨٧٦ – ١٩٥٣م) والشريف حسين (١٢٧٠ – ١٣٥٠هـ، ١٨٥٤ – ١٩٣١م) – أوائل عشرينيات القرن العشرين – اتخذت مصر موقف الحياد الميال إلى ابن سعود، وهو نفس موقف إنجلترا؛ ما خُيِّل للبعض أن بريطانيا هي المحركة للسياسة المصرية في هذه المدة، ولكن من الواضح أن لكل من بريطانيا ومصر الأسباب التي تدعوها

إلى اتخاذ مثل هذا الموقف؛[٤] فمن الأسباب التي دعت مصر إلى اتخاذ هذا الموقف إعلان الشريف حسين الثورة العربية على الدولة العثمانية، وكان معظم المصريين الوطنيين يعتقدون أن المصلحة تقضي بالتضامن الإسلامي تحت لواء الدولة العثمانية لمواجهة الاستعمار الغربي. وفي هذا المجال يقول حافظ وهبة (١٣٠٦ – ١٣٨٦هـ، ١٨٨٩ – ١٩٦٧م) مستشار ابن سعود: «إن فريقًا كبيرًا من مسلمي الهند ومصر لم ينظروا نظرة استحسان إلى قيام الشريف حسين ضد الأتراك».[٥] وكان من الأسباب أيضاً البعثة الطبية التي أرادت مصر إرسالها مع المحمل المصري إلى الحجاز سنة ١٩٢٣م، ورفضها الشريف حسين ظناً منه أن لها أغراضًا سياسية[٦] وبناءً على ذلك استدعت الحكومة المصرية بعثة الحج، وعاد المحمل المصري دون أن يكمل مناسك الحج. وفي العام التالي – بعد وصول الطرفين إلى اتفاق ينظم أمور المحمل المصري والبعثة الطبية المرافقة له – أساء الشريف حسين معاملة البعثة المصرية بل أساء إلى الملك فؤاد نفسه (١٢٨٤ – ١٣٥٤هـ، ١٨٦٨ – ١٩٣٦) بنزع اسمه من فوق الكسوة الشريفة المرسلة إلى الكعبة، وأسيئت معاملة الحجاج المصريين. وفي عام ١٩٢٤ نفسه أعلن الشريف حسين نفسه خليفة للمسلمين بعد سقوط الخلافة العثمانية؛ ما أدى إلى استياء الملك فؤاد الذي كان يتطلع إلى هذا المنصب.

في هذه الظروف انتهز ابن سعود الفرصة للتقرب إلى مصر، فأرسل برقية تهنئة للملك فؤاد بمناسبة الاحتفال بافتتاح أول برلمان مصري سنة ١٩٢٤.[٧] وصرح على لسان الأمير فيصل بأنه يرغب في عقد مؤتمر الخلافة الإسلامية في القاهرة،[٨] وعرض منصب الخلافة على الملك فؤاد.[٩] ولما كان ابن سعود مدركًا للصلات التقليدية الدقيقة بين مصر والحجاز، ومعترفًا بزعامة مصر من وجهة الثقافة والمدنية،[١٠] اتجه إلى كسب الرأي العام المصري تمهيدًا لضم الحجاز إلى مكة. وسهل له هذه المهمة الشيخ رشيد رضا (١٢٨٢ – ١٣٥٤هـ، ١٨٦٥ – ١٩٣٥م) – صاحب مجلة المنار – الذي كان موجودًا في مصر في ذلك الوقت، ودافع عن الحركة السلفية (دعوة التوحيد) وعن سياسة ابن سعود لتصحيح رواسب الماضي.[١١]

وأرسل ابن سعود في أوائل سنة ١٩٢٥ الطبيب المصري عبد الهادي خليل وحَمَّله تحياته لملك مصر، ورجا منه أن ينظر إلى الحجاز وما يعاني من الضيق نظرة كريمة، ويرسل إلى أهله شيئًا من أوقاف الحرمين، ولكن الرسول عاد يحمل أطيب الأماني والتحيات فقط.[١٢]

ومن ناحية أخرى نجد الملك فؤاد يأمر السلطات المصرية بمصادرة شحنة السلاح التي كانت في ميناء السويس ومرسلة من بلجيكا إلى الشريف علي – ملك الحجاز في ذلك الوقت– و لم

يستجب لتوسلات هذا الملك بمساعدته على ابن سعود، بل أرسل وفدًا برئاسة الشيخ محمد مصطفى المراغي رئيس المحكمة الشرعية العليا، وعبد الوهاب طلعت سكرتير أول الديوان الملكي المصري، في سبتمبر ١٩٢٥ للصلح بين ملك الحجاز وسلطان نجد، ولكن ابن سعود رفض الوساطة، حتى لا تعوقه عن فتح الحجاز الذي كان قاب قوسين أو أدنى.[١٣] وعاد الوفد إلى مصر مؤكدًا أن الموقف في مصلحة ابن سعود. ولمّا دخل ابن سعود الحجاز استجابت مصر لطلبه بإرسال أموال الحرمين والمساهمة في إنقاذ المنكوبين، ومساعدة أهل المدينة المنورة.[١٤] وفي ٨ يناير سنة ١٩٢٦ نودي بابن سعود «ملكاً على الحجاز وسلطانًا على نجد وملحقاتها»، بعد أن نجح في ضم الحجاز إلى مكة.[١٥]

مما سبق يمكن قول: إن العلاقات بين مصر وابن سعود كانت طيبة منذ أن بدأ ابن سعود يتصل بمصر حتى سنة ١٩٢٦، فما الأسباب التي أدت إلى سوء العلاقات وتوترها بين مصر والسعودية ووصولها إلى مرحلة القطيعة السياسية؟

أولاً– أسباب توتر العلاقات المصرية السعودية قبل سنة ١٩٣٦:

كانت العلاقات المصرية السعودية طيبة قبل ضم ابن سعود الحجاز وإعلان نفسه ملكًا عليها سنة ١٩٣٦، ولكنها ما لبثت أن بدأت تتوتّر حتى وصلت إلى حد قطع العلاقات السياسية بينهما. وكانت أسباب هذا التوتر متعددة، ولكن السبب المباشر هو حادثة المحمل المصري سنة ١٩٢٦، ورفض أمير الحج المصري صرف الصدقات وأوقاف الحرمين على فقراء الحجاز. والأسباب الأخرى هي: عدم اعتراف مصر بوضع ابن سعود ملكًا على الحجاز، والتنافس بين ابن سعود والملك فؤاد في منصب الخلافة، وقانون الجنسية الحجازية سنة ١٩٢٦، والخلاف الخاص بالتكية المصرية، وأخيرًا الخلاف في جزيرتي تيران وصنافير، ومناطق صيد الأسماك.

- **حادثة المحمل المصري سنة ١٩٢٦:**

تعوّدت مصر منذ عهد الملكة شجرة الدر (ت. ٦٥٥هـ، ١٢٥٧م)[١٦] أيام الأيوبيين إرسال المحمل يحمل كسوة الكعبة، وأوقاف الحرمين الشريفين إلى الحجاز،[١٧] وكانت تبعث مع المحمل قوة مسلحة تحرسه من الطامعين في الاستيلاء عليه في أثناء رحلة الحجاز الطويلة. وكان من العادة استعمال الموسيقى لتنظيم صفوف الجنود للترفيه عنهم وعن الحجاج المرافقين للمحمل طوال مدة، واستمر إرسال المحمل على هذه الصورة في عهد حكم المماليك، والعثمانيين.

وفي سنة ١٩٢٥ لم ترسل مصر المحمل إلى الحجاز، لحالة الحرب التي كانت دائرة بين ابن سعود والهاشميين للاستيلاء على الحجاز. وبعد نجاح ابن سعود في ضم الحجاز سنة ١٣٤٤هـ، ١٩٢٦م أرادت مصر أن تستأنف إرسال المحمل المصري، وقبيل سفر المحمل أثير خبر بأن حكومة ابن سعود تنوي تجريد المحمل من سلاحه فور وصوله إلى جدة، ولكن وكالة الحجاز في القاهرة كذبت الخبر.(١٨)

ومما لا شك فيه أن تبدل النظام الحاكم فى الحجاز تطلب تعديلاً في بعض الأمور والتقاليد التي كانت متبعة من قبل، وخاصة بالمحمل المصري؛ فلم يتقبل النظام السعودي الجديد التقليد الخاص بمصاحبة قوات مسلحة للمحمل المصري على أساس أن في هذا اعتداء على سيادة البلاد الشرعية، واعترض بعض المتعصبين دينيًا من أهل نجد على ما يحمله من آلات موسيقية، وما يمارسه الحجاج من بعض العادات من شرب الدخان، على اعتبار أن الموسيقى تلهي عن ذكر الله في تلك الأرض المقدسة، والدخان شجرة خبيثة يجب أن تطهر منها تلك الأراضي. (١٩)

وسافر المحمل المصري إلى الحجاز، وقيل: إن الملك عبد العزيز وأبناءه ذهبوا ورحّبوا به عقب وصوله إلى جدة، وأثناء سير المحمل في أرض الحجاز سمع أهل نجد (الإخوان) أصوات الموسيقى التي تُعزف بمرافقة الجنود المصريين فأرادوا منعهم من استعمالها، ووقعت اشتباكات بين الطرفين أسفرت عن بعض القتلى والجرحى، وكان معظمهم نجديين. ولولا سرعة وصول الملك عبد العزيز إلى مكان الحادث وتهدئته الموقف لتفاقم الأمر أكثر من ذلك.(٢٠)

وبناءً على ذلك أرسل ابن سعود رسالة إلى أمير الحج المصري يحتجّ فيها على تصرفات ركْب المحمل واستعماله الأسلحة النارية. ويذكر حافظ وهبة أنه «قضى أكثر من أسبوع بين الملك عبد العزيز مندوباً عن السعودية وبين أمير الحج المصري في نقاش وجدال دفعاً لفتنة جديدة؛ فالإخوان عقولهم ضعيفة، وهم يملؤون الحرم وطرق مكة، وممتلئون حنقًا على المحمل وأهله، وإذا صاح النفير قالوا: إن هذه دعوة الشيطان؛ فهاجوا وماجوا. وإذا أُدخل المحمل إلى الحرم كما كان معتادًا قامت قيامة الإخوان: كيف تأذن الحكومة في إدخال الأصنام إلى الحرم؟.(٢١)

طلب حافظ وهبة من أمير الحج المصري أن يوقف صياح النفير، ويخرج المحمل من الحرم، ولكن رشيد رضا ويوسف ياسين – وهما من المقربين إلى الملك عبد العزيز – سعيا عند الملك عبد العزيز للإبقاء على المحمل فى الحرم، وأخيرًا تم الاتفاق على سحب المذكرات المتبادلة عن الحادث واستبدال خطابين رقيقين بها لإنهاء المسألة.(٢٢)

• **رفض أمير الحج المصري صرف الصدقات وأوقاف الحرمين الشريفين:**

ما كادت هذه الأزمة تنتهي حتى ثارت أزمة أخرى حول توزيع الصدقات وأوقاف الحرمين، ودار نقاش بين حافظ وهبة – مندوبًا عن السعودية – وأمير الحج المصري حول هذا الموضوع، أدى في النهاية إلى عدم وصول الطرفين إلى اتفاق يحدد كيفية صرف هذه الأوقاف. وتمسك أمير الحج المصري بضرورة تغيير قوائم المنتفعين بهذه الأوقاف، على حين رفض حافظ وهبة هذا الاقتراح؛ ولذا عاد المحمل المصري دون أن يوزع أمير الحج الصدقات وأوقاف الحرمين على فقراء الحجاز؛ ما زاد الموقف بين البلدين حدةً وتوتراً.

• **رفض مصر الاعتراف بابن سعود ملكاً على الحجاز:**

مع أن ابن سعود صرّح بأن حكومة الحجاز تعدّ حدث المحمل من الأمور المحلية التي لا يمكن أن تؤثر في العلاقات والصداقة بين البلدين الشقيقين، كان له أثر سيء لدى الحكومة المصرية والرأي العام المصري؛ فحملت الصحافة المصرية حملة واحدة على الوهابيين، حتى إن جريدة «الأهرام» نشرت مقالاً افتتاحيًا زعمت فيه أن الخطر على البشر يأتي من البلشفية[٢٣] والوهابية، بل إن جريدة «السياسة» أسرفت في تصوير الوهابية بصورة حيوانات مفترسة تستحلّ افتراس كل مَنْ ليس وهابياً.[٢٤] أما الحكومة المصرية فقد رأت أن هذه المسألة هي أزمة سياسية، وليست دينية؛ ما أدى إلى توتر العلاقات بين البلدين، بل بين الملكين، حتى إن الملك فؤاد استمر في عدم اعترافه بابن سعود ملكاً على الحجاز، وكان هذا الحدث فرصة له ليظهر ما يبطنه تجاه الملك عبد العزيز، فقد اعترفت به معظم دول العالم ملكًا على الحجاز، ومنها إنجلترا،[٢٥] التي تقع مصر في سيطرتها، ولكن مصر – التي كانت تتمتع بمركز هام في العالم الإسلامي والعربي، وكان ابن سعود يحرص على اعترافها به– لم تعترف بوضع ابن سعود في الحجاز، وظلت القنصلية الحجازية في مصر لا تمثل السلطة الرسمية للحجاز.[٢٦]

ومع أن الحكومة المصرية منعت إرسال بعثة الحج الرسمية إلى الحجاز منذ سنة ١٩٢٦، إلا أنها لم تمنع أهل مصر – ممَن يريدون الحج على مسئوليتهم– من السفر إلى الحجاز؛ فمجلس الوزراء المصري قرر أن «إعلان الحجاج المصريين أنهم بسفرهم قد يستهدفون لبعض المخاطر ويكون سفرهم على كامل مسئوليتهم» وأجاب رئيس الوزراء عبد الخالق ثروت (١٨٧٣ – ١٩٢٨م) عن سؤال في مجلس النواب: لماذا لم تمنع الحكومة المصرية المصريين من الحج، وهي تعتقد أنهم يستهدفون فيه للخطر وحمايتهم واجبة عليها؟ فقال: إن سبب عدم المنع لاعتبارات دينية، يعني أن الحكومة لم يمكنها أخذ فتوى شرعية بمنع الحج، فلم تستطع

حمل تبعة منع المسلمين من أداء فريضتهم.[٢٧]

وقد أدى منع إرسال المحمل المصري وأوقاف الحرمين إلى الحجاز إلى قلة عدد الحجاج المصريين، وانقطاع الكثير من الموارد المالية لأهل الحجاز، وترتب على ذلك زيادة أحوال أهل الحجاز الاقتصادية سوءاً؛ ما دفعهم إلى تكوين جمعية في مكة للمطالبة بأوقاف الحرمين لإنقاذ فقراء الحجاز، والمشاركة في تخفيف الضائقة الاقتصادية عنهم.[٢٨]

• **موضوع الخلافة:**

أدى إلغاء الخلافة العثمانية (٢٧ رجب ١٣٤٢هـ، ٣ مارس ١٩٢٤م) إلى تطلع بعض الحكام العرب بشغف إلى هذا المنصب الديني الخطير باعتباره زعامة روحية للمسلمين، وكان من بين هؤلاء الحكام الشريف حسين الذي ضاعت فرصته بعد خروجه من مكة، وظن البعض أن هذه الفرصة متاحة بصورة أفضل لمَنْ يحكم الحجاز.

ولّما أعلن الشريف حسين نفسه خليفة للمسلمين سنة ١٩٢٤، وقف كل من الملك فؤاد والملك عبد العزيز موقفًا واحدًا تقريبًا من حيث رفضهما لإعلان الشريف خلافته، ووجوب عرض هذه المسألة على مؤتمر يمثل الشعوب الإسلامية تمثيلاً صحيحاً، كما يقول رشيد رضا. [٢٩] وهذا الموقف من الأسباب التي جعلت الملك فؤاداً يميل إلى ابن السعود في صراعه مع الشريف.

ولّما أراد ابن سعود ضم الحجاز سعى إلى كسب الرأي العام المصري؛ فأعلن موافقته على عقد مؤتمر الخلافة في القاهرة، وعرض هذا المنصب على الملك فؤاد. ولّما اقترب ابن سعود من ضم الحجاز، راح يدعو الشعوب الإسلامية إلى عقد مؤتمر إسلامي في مكة لبحث مصير الحجاز،[٣٠] وأرسل خطابات موقعة باسمه إلى مصر وغيرها من البلدان الإسلامية،[٣١] وأوضح في دعوته خطته التي عاهد عليها العالم الإسلامي، وكان منها:

١ – الحجاز للحجازيين من جهة الحكم، وللعالم الإسلامي من جهة الحقوق التي لهم في هذه البلاد المقدسة.

٢ – إجراء استفتاء لاختيار حاكم الحجاز بإشراف مندوبي العالم الإسلامي.[٣٢]

وبعد أن ضمّ ابن سعود الحجاز، وأعلن نفسه ملكًا عليه، غضب الملك فؤاد وعدّ هذا إنكارًا لدعوة ابن سعود العالم الإسلامي. وما زاد الأمر توترًا أن ابن سعود لم يرسل مندوبًا عنه إلى مؤتمر الخلافة الذي عُقد في القاهرة في مايو سنة ١٩٢٦، ظناً منه أن هذا المؤتمر يعقد لترشيح

الملك فؤاد للخلافة.[٣٣] وعقد المؤتمر الإسلامي الذي كان يدعو إليه في مكة في نفس العام الذي عُقد فيه مؤتمر القاهرة،[٣٤] مما زاد من شكوك الملك فؤاد، واعتقد أن الملك عبد العزيز تعمد هذا ليفشل مؤتمر القاهرة.

- **قانون الجنسية الحجازية، نوفمبر سنة ١٩٢٦:**

كان من أسباب التوتر بين البلدين القانون الذي أصدرته الحكومة السعودية في نوفمبر سنة ١٩٢٦ الخاص بالجنسية السعودية، وكانت المادة الأولى منه تنص على «أن مَنْ يولد في الأراضي الحجازية يعدّ حجازيًا، وأنه يجوز لمَنْ أقام في الحجاز ثلاث سنوات متواليات أن ينال الجنسية الحجازية».[٣٥] وعقب صدور هذا القانون أبلغته الحكومة الحجازية قنصلَ مصر في جدة، كما فعلت لقناصل الدول الأخرى، ولكن الحكومة المصرية احتجت عليه وطالبت بتعديله بحجة مخالفته للقوانين الدولية، فأجابتها الحكومة السعودية بأن لا حقَّ للحكومة المصرية في هذا الطلب؛ لأنه من الشؤون الداخلية للحكومة السعودية وسيادتها على أراضيها، وأضافت: إن وجود الجاليات الإسلامية المتعددة في مدن الحجاز هو الذي دفعها إلى إصدار هذا القانون. وكان اعتراض الحكومة المصرية نابعاً من خوفها من أن يؤدي هذا القانون إلى تحول بعض المصريين المولودين في الحجاز أو الموجودين فيها إلى اكتساب الجنسية الحجازية، وكان دليلها على ذلك حافظ وهبة الذي نال الجنسية الحجازية.

ويرى البعض أن صدور هذا القانون كان «الجوهر في عدم اعتراف مصر بحكومة الحجاز»[٣٦] ولكن يمكن قول: إن هذا القانون كان سبباً من أسباب التوتر في إصرار الحكومة المصرية على عدم الاعتراف بحكومة الحجاز. وظلت هذه المسألة قائمة، و لم تحلّ إلا سنة ١٩٣٦ بمقتضى المعاهدة.

- **الخلاف الخاص بالتكية المصرية:**

كانت هناك أيضاً خلافات خاصة بالتكية المصرية في الحجاز،[٣٧] لمحاولة السلطات الحجازية الاستيلاء عليها، لتوسيع الحرمين الشريفين. ومن هذه الخلافات: فرض الضرائب على الأدوات، والأدوية، والملابس، والمهمات الخاصة بالتكية المصرية. وقد ذكرت القنصلية المصرية في جدة أن هذه المعاملة لم يسبق أن تعاملت بها الحكومة الحجازية مع التكية المصرية، وأنها سوف تكلف الأوقاف المصرية نحو خمسة آلاف جنيه مصري، وأن هذا القرار اتخذ أثناء غياب الملك. ولمّا حاولت القنصلية المصرية مخاطبة الرياض ردّ رئيس الديوان العالي بأن

الحكومة الحجازية حرة في الإعفاء من الرسوم الجمركية أو فرضها.

ومن الخلافات أيضًا مسألة توزيع الصدقات المقررة لخُدّام الحرم الشريف بمعرفة التكية المصرية؛ فقد اعترضت الحكومة السعودية على ذلك، ورأت تسليم المبالغ إليها لتقوم هي بتوزيعها. من هنا كانت مسألة فرض الضرائب والتضييق على نشاط التكية سببًا من أسباب التوتر بين البلدين.[٣٨]

- **الخلاف حول جزيرتي تيران وصنافير ومناطق صيد السمك:**

كان من أسباب التوتر أيضاً الخلاف في منطقة الحدود بين البلدين في مدخل خليج العقبة؛ ذلك أن جزيرتي تيران وصنافير[٣٩] الموجودتين في مدخل الخليج كانتا تابعتين للحجاز، ثم إلى الملك عبد العزيز بحكم وضعه الجديد، ولكن مصر لم تعترف بذلك؛ فطالبت حكومة الحجاز الحكومة المصرية بمنع سفنها من الصيد في المياه الإقليمية الحجازية، وإعادة النظر في المعاهدة التي تعين الحدود بين البلدين. وقد جرت محاولات لتصفية هذه الخلافات ولكنها لم تنجح حتى عُقدت معاهدة ١٩٣٦.[٤٠]

ثانياً- محاولات التقارب بين البلدين:

بذل الجانبان السعودي والمصري جهوداً لمحاولة لإزالة الخلافات وإعادة العلاقات الطيبة بين البلدين، وكانت هناك جهود مضادة أيضاً لعرقلة تلك المحاولات الطيبة؛ فمن الجانب السعودي كان الملك عبد العزيز نفسه يسعى جاهدًا لإزالة الخلافات بين البلدين أملاً في الحصول على اعتراف مصر به لتثبيت مركزه في العالم الإسلامي، والاستفادة من الخبرات الفنية المصرية اللازمة لتحقيق طموحاته لتمدين المملكة العربية السعودية، وكان مستشاره الشيخ حافظ وهبة – وهو مصري الأصل وله اتصالات بكثير من السياسيين المصريين – والشيخ فوزان السابق المعتمد السعودي في مصر – يحاولان أيضاً إزالة الخلافات بين البلدين.

ومن الجانب المصري كان حزب الوفد يسعى إلى تقارب البلدين في فترة توليه السلطة؛ لأنه كان حزب الأغلبية، وهو الحزب الوحيد الذي كان قادرًا على التصدي لرغبات الملك فؤاد.[٤١] وكانت هناك جهود بعض العلماء ورجال الدين، إضافة إلى حسن الأشموني القائم بالأعمال المصري في جدة، وأمين توفيق القنصل المصري هناك، ومحمد طلعت حرب(١٨٦٧ – ١٩٤١م) الاقتصادي المصري الكبير. كل هؤلاء كانوا يحاولون إزالة حالة

التوتر بين مصر والسعودية، وإعادة العلاقات الطيبة بينهما.

من هنا يمكن القول: كانت هناك جهتان رئيستان تحاولان إزالة حالة التوتر وإعادة العلاقات الطيبة بين البلدين: إحداهما سعودية تتمثل بالملك عبد العزيز، وحافظ وهبه، وفوزان السابق، والأخرى مصرية تتمثل بحزب الوفد،[٤٢] وطلعت حرب، وحسن الأشموني، وأمين توفيق وبعض العلماء ورجال الدين. هذا إضافة إلى الجهود الشعبية التي بذلها الجانبان السعودي والمصري، وكانت تحاول تقريب وجهات النظر بينهما، مثل: مشاركة مصر الشعبية في الوساطة لإنهاء الحرب اليمنية السعودية، والصحافة ودورها في التقارب السعودي المصري، والسياحة الشعبية بين البلدين.

ثالثاً– المفاوضات وعقد معاهدة ٧ مايو – ١٨ نوفمبر ١٩٣٦:

- **المفاوضات وعقد معاهدة ٧ مايو ١٩٣٦:**

في ٧ إبريل ١٩٣٦ أبرق علي ماهر (١٨٨١ – ١٩٦٠م) رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية باسم الحكومة المصرية إلى وزير خارجية المملكة العربية السعودية يدعوه فيها إلى ندب مَنْ ينوب عن الحكومة السعودية للمفاوضة في حل المسائل المعلقة، وهذا نص البرقية: «لما كان من أعزّ أماني حكومة جلالة الملك أن توطّد علاقات مصر بالمملكة العربية السعودية على أساس متين من المودة والصداقة، وأن تسوى المسائل المعلقة بينهما بما فيه صالح البلدين – فأتشرف بدعوة سموكم – مع الموافقة – إلى أن توفدوا في أقرب وقت ممكن مفوضًا لمباحثتنا وتوقيع الاتفاق الذي تنتهي إليه».

وقد جاء الجواب تلغرافيًا في اليوم التالي مباشرةً بالموافقة، ونُدِب سعادة فؤاد حمزة بك وكيل وزارة الخارجية السعودية لمفاوضة الحكومة المصرية، وهذا نص الجواب: «تلقيت بيد السرور والامتنان برقية دولتكم الكريمة التي تفضلتم فيها بإبداء رغبة الحكومة المصرية في توطيد علاقاتها بالمملكة العربية السعودية على أساس متين من المودة والصداقة، وفي تسوية المسائل المعلقة بينهما بما في ذلك صالح البلدين، ومن أجل ذلك الغرض تفضلتم بدعوة حكومتي لإيفاد مندوب مفوض إلى مصر ليبحث مع دولتكم في ذلك، ويقع الاتفاق الذي قد تسفر عنه المفاوضات، فجوابًا على ذلك أتشرف بأن أعلن لدولتكم عن ابتهاج حكومة جلالة الملك، وسرورها بهذه الخطوة المباركة في سبيل تحقيق ما بين بلدينا وأمتنا من روابط وطيدة ومصالح مشتركة قائمة على سلسلة مجيدة من التقاليد والماضي المشترك، والدين واللغة والجوار. وحكومة جلالته مع تقديرها للروح الطيبة التي أملت على حكومة صاحب الجلالة

ملك مصر هذا الشعور النبيل، تبادر لمقابلة البرقية بمثلها وتقبل الدعوة الموجهة إليها بكامل الامتنان، وقد وقع الاختيار على سعادة فؤاد بك حمزة وكيل الخارجية للقيام بهذه المهمة، وسيكون سفره من جدة يوم الاثنين الواقع في ١٣ إبريل، فيصل إلى السويس يوم الأربعاء ١٥ منه. وإنني أسأل الله أن يوفقنا جميعًا لما فيه حفظ مصالح بلدينا المشتركة، وسعادة أمتنا ورفاهيتهما».[٤٣]

والسؤال الآن: لماذا جاءت المبادرة لحل المسائل المعلقة وإعادة العلاقات الطيبة بين البلدين من الحكومة المصرية، مع أنها لم تستجب للمحاولات المتعددة التي قامت بها الحكومة السعودية من قبل؟

في فترة قطع العلاقات السياسية بين مصر والسعودية (١٩٢٦ – ١٩٣٦) كانت الاتصالات مستمرة بينهما في مختلف النواحي تقريبًا: الدينية – ما عدا المحمل، والكسوة، والصدقات –والاجتماعية، والاقتصادية، والتعليمية واستمرت قوافل الحجاج تفد على المملكة السعودية كل عام، و لم تنقطع حتى في سنوات الأزمة الاقتصادية العالمية. ومع أن بعض الصحف الموالية للملك فؤاد، أساءت إلى الشعب السعودي وحاكمه، إلا أن شعور الودّ بين الشعبين لم تتغير، وزادها ارتباطًا ما قام به الأمير سعود أثناء زيارته لمصر، لإزالة ما قد تسرب إلى قلوب المصريين تجاه السعوديين.

إضافة إلى ذلك كانت المعونات الاقتصادية تُرسل من مصر إلى السعودية أثناء الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها السعودية، وكان الشعب المصري يسارع إلى التبرع لحل هذه الأزمات، بل كانت السعودية تستعين بكثير من الأطباء والمدرسين المصريين، وترسل شبابها في جميع مراحل التعليم إلى مصر، وبموافقة الحكومة المصرية على ذلك. والدليل على مدى ارتباط الشعبين بروابط وثيقة المشاركة الشعبية من مصر لحلّ أزمة الحرب اليمنية السعودية، والترحيب الذي لقيه محمد طلعت حرب من الشعب السعودي، والحكومة السعودية، والملك عبد العزيز.

إذن كل الدلائل تشير إلى استمرار العلاقات الودية بين الشعبين المصري والسعودي، وأن المسائل المختلف عليها كان يمكن إزالتها بسهولة لولا تعنّت حاكم مصر الملك فؤاد، ووقوف إنجلترا موقف المتفرج من هذه الأزمة؛ لذلك يمكن القول: إن الخلاف لم يكن بين الشعبين بقدر ما كان بين الملكين؛ فهو خلاف شخصي[٤٤] انتهى بوفاة الملك فؤاد، مع أن موقفه تغير في السنتين الأخيرتين، «وزالت كل أسباب النزاع والجفاء، وحل محله الصفاء والإخاء».[٤٥]

تغير موقف الملك فؤاد من حالة الإصرار على عدم الاعتراف بالحكومة السعودية وحلّ المشاكل بينهما، إلى حالة الرغبة في تصفية هذه المشكلات. ووجد الملك فؤاد أن السبب الرئيس في إصراره على عدم الاعتراف – وهو موضوع الخلافة – أصبح لا أمل فيه؛ لأن الحجاز في سلطانه، وأن حاكمها ثبت وضعه فيها، بل إنه أدرك أن ابن سعود لم يعلن نفسه خليفة، وأن العالم الإسلامي – لظروفه الداخلية والخارجية– غير مهيأ لإسناد منصب الخلافة إلى أحد من حكامه.[٤٦] ومن ناحية أخرى كان الملك فؤاد مريضًا منذ سنة ١٩٣٤، واشتد عليه المرض، وربما كان يحسّ بدنوّ أجله؛ فأراد أن يفعل شيئًا صالحًا يرضي به ربه وشعبه وحكومته؛ لذلك وافق على فتح باب المفاوضات. وبعد مرور ثمانية أيام من بدء المفاوضات توفي الملك فؤاد.

أما موقف إنجلترا السلبي من توتّر العلاقات بين البلدين، فيمكن قول: إن انجلترا لو أرادت في فترة توتر العلاقات بين مصر والسعودية أن تزيل هذا التوتر وتعيد العلاقات إلى ما كانت عليه ما تأخرت في ذلك لحظة واحدة؛ لأنه ليس من مصلحتها عودة العلاقات بين البلدين – كما سبق القول– لكي تقوم بدور الوسيط بينهما، ويكون للمعتمد البريطاني في كليهما الكلمة العليا، ولكنها لمّا أرادت عودة العلاقات وقفت إلى جانب علي ماهر رئيس الوزراء المصري، وضغطت على الملك فؤاد لقبول الدخول في المفاوضات، فلماذا تغير موقفها من تلك الأزمة؟ تغير موقفها؛ لأنها بدأت تدخل منذ سنة ١٩٣٥ في فترة التمهيد لإجراء المفاوضات بينها وبين مصر لعقد معاهدة بينهما،[٤٧] لذلك تدخلتْ لإنهاء فترة التوتر.

كان الموقف الدولي أيضاً في غير مصلحة إنجلترا؛ إذ بدأت إيطاليا تأخذ جانب ألمانيا العدو اللدود لبريطانيا، وهجومها على إثيوبيا، ومحاولات موسوليني التقرب من السعودية واليمن، كل ذلك جعل إنجلترا تسارع إلى تصفية المشكلات بين حلفائها – ومنهم مصر والسعودية – وتؤيد خطوات علي ماهر لإعادة العلاقات بين البلدين. وكان علي ماهر رئيس الوزراء مستاء من قطع العلاقات بين شعبين بينهما روابط وثيقة؛ فاستغل فرصة توليه منصب رئاسة الوزراء في الوزارة الجديدة «الانتقالية»، وسلطته في التوقيع على المعاهدة،[٤٨] ودعا الحكومة السعودية إلى إجراء المفاوضات وعقد معاهدة صداقة بين البلدين.

الجدير بالذكر أن عام ١٩٣٥ يعدُّ عام التمهيد الشعبي للدعوة إلى التفاوض؛ فقد بدأت الصحافة المصرية والسعودية تتبادلان الدعوة إلى تصفية الخلافات بين البلدين، وأشادت الصحف السعودية بالدور الذي قام به طلعت حرب لتقريب هوّة الخلاف بينهما؛ ففي إحدى المقالات تتساءل جريدة الأهرام: «كيف يتصور مسلم أن العلاقات السياسية مقطوعة

بين زعيمة البلاد الإسلامية والأقطار المقدسة لدى المسلمين لأسباب تافهة، لو توجهت إليها العزائم لبددت ما فيها من صعوبات، وكيف يستعصى على الوزارات المتعاقبة في مدى السنوات العشر الأخيرة، تذليل الصعاب والاعتراف بحكومة جلالة الملك بن سعود».[٤٩]

بدأت المفاوضات بين الجانبين يوم الاثنين ١٩٣٦/٤/٢٠م/١٣٥٥هـ، ومثل الجانب المصري علي ماهر رئيس الوزراء، والشيخ مصطفى المراغي (١٨٨١ – ١٩٤٥م) شيخ الأزهر، وعبد الحميد بدوي رئيس قضايا الحكومة، ومثل الجانب السعودي فؤاد حمزة وكيل الخارجية السعودية، وفوزان السابق معتمد الحكومة السعودية في مصر. واستمرت المفاوضات حتى ١٩٣٦/٥/٧ و لم تتوقف إلا عندما توفي الملك فؤاد يوم ٢٨ إبريل عندما كان فؤاد حمزة يريد إطلاع الملك عبد العزيز على بعض الأمور وإبداء رأيه فيها.

استغرقت المباحثات في المسائل الدينية وقتًا طويلاً؛ لذلك عرض علي ماهر على فؤاد حمزة إرجاء هذه المسائل إلى جولة تكميلية أخرى تعقد في نوفمبر من العام نفسه؛[٥٠] وذلك لوفاة الملك فؤاد، ولأنه كان يملك في تلك الأيام سلطة توقيع المعاهدة. ووافق الطرفان على التوقيع على المعاهدة، وإرجاء النظر في المسائل الدينية – مثل: المحمل، والكسوة، والصدقات، والجنسية – إلى جولة تكميلية. وكأن علي ماهر أراد أن يترك لوزارته الانتقالية القصيرة أثراً يذكره التاريخ، ويذكره الشعب المصري.

في ١٩٣٦/٥/٧م، ١٦ صفر ١٣٥٥هـ وُقِّعت المعاهدة بين مصر والسعودية في ديوان رئاسة مجلس الوزراء المصري، وفي ذلك تذكر جريدة الأهرام أن «التوقيع تم في الساعة الحادية عشرة من مساء أمس (٧ مايو) بعد ستة عشر يومًا في أربع عشرة ساعة وخمس عشرة دقيقة، وهذه أول مرة في التاريخ – على ما نذكر – يحدث فيها أن تُوقَّع معاهدة بين مملكتين، في أثناء انتقال السلطات الدستورية في إحداهما من ملكها المتوفى فؤاد إلى مجلس وزرائه، وبسبب وفاة المغفور له جلالة الملك فؤاد، والفترة المماثلة بين الوفاة وانعقاد البرلمان لإقرار مجلس الوصاية، اجتمعت جميع سلطات الملك الدستورية في شخص مجلس الوزراء الذي تولى أمس رئيسه التوقيع على المعاهدة المصرية السعودية» وكما ترى جريدة «الأهرام» فإن ليلة أمس كانت آخر ليلة يمارس فيها مجلس الوزراء تلك السلطات؛ إذ تزول عنه هذه الصفة بعد انعقاد البرلمان اليوم، فتكون هذه المعاهدة آخر عمل كبير قامت به الوزارة «الماهرية» في عهدها القصير.

أما المعاهدة فقد أمليت بروح راغبة سلفاً في إقامة العلاقات بين الدولتين على أسس الصداقة

والإخلاص والحرص على المصالح المتبادلة بينهما. وقد تقرر أن تذاع نصوص المعاهدة يوم السبت في مصر ومكة، وجاءت في سبع مواد شغلت صفحة ونصفاً تقريبًا.[٥١] وتنص المادة الأولى من المعاهدة على أن «تعترف الحكومة المصرية بأن المملكة العربية السعودية دولة حرة ذات سيادة، مستقلة استقلالاً تامًا مطلقًا». والواقع أن مشكلة اعتراف مصر كانت أهم ما يشغل بال الملك عبد العزيز؛ فقد سارعت روسيا وإنجلترا وفرنسا وغيرها من الدول العظمى إلى الاعتراف به فور إعلانه ملكاً على الحجاز سنة ١٩٢٦، إلا مصر التي رفضت الاعتراف به،[٥٢] وكان لهذا أثر كبير في نفس الملك عبد العزيز؛ لأن لمصر مكانة كبيرة في العالم الإسلامي، وفي الحصول على اعترافها نصر كبير.

في سنة ١٩٢٨ أثار بعض أعضاء مجلس النواب مسألة الاعتراف حينما تساءلوا عن الموانع التي تحول دون اعتراف حكومة مصر بحكومة الحجاز، في حين أن الدول الكبرى في أوروبا لم تتأخر عن الاعتراف بهذه الحكومة؟ وأجابهم رئيس مجلس الوزراء مؤكدًا ما بين البلدين من الروابط الدينية، وأن الحكومة مشغولة بالبحث في المسائل المعلقة بينهما «ونرجو أن نوفق في القريب إلى الحل الذي يصون حسن العلاقات بين الشعبين عملاً بالرغبة الأكيدة المتبادلة في أن يسود بينهما الصفاء وحسن التفاهم».[٥٣]

في سنة ١٩٣٠ ألقى عبد الرحمن عزام كلمة في مجلس النواب دافع فيها عن ابن سعود، وأنهى كلمته بمطالبة الحكومة أن توضح سبب رفضها الاعتراف بحكومة الحجاز حتى الآن! والمشاكل التي بينها وبين حكومة الحجاز التي ينبغي تسويتها كي تعترف بها، ولكن وزير الخارجية رفض الإدلاء بأي تصريح في المسائل المعلقة بين البلدين، وعدّها من الأمور التي يجب ألا تبحث بصورة علنية.[٥٤]

وظلت مسألة الاعتراف تثار في أروقة البرلمان وعلى صفحات الجرائد بين الحين والآخر، حتى وُقِّعت المعاهدة بين البلدين، واعترفت مصر بحكومة ابن سعود. وتقرر في المادة الثانية أن يكون بين المملكتين ورعاياهما سلام دائم وصداقة خالصة، وأن يحافظ كل من الطرفين على حسن العلاقات مع الطرف الآخر، ويسعى بكل ما لديه من الوسائل لمنع استعمال بلاده قاعدة للأعمال غير المشروعة لدى السلم والسكينة لدى الطرف الآخر.[٥٥]

وأقرت المادة الثالثة إقامة علاقات التمثيل السياسي والقنصلي بين البلدين. وكانت مسألة التمثيل القنصلي من عوامل الخلاف بين البلدين؛ ففي سنة ١٩٢٥ أنشأت الحكومة المصرية قنصلية لها في جدة في عهد علي بن الشريف حسين، وعين لها أحد العسكريين، ثم تولاها

عقب الحرب الحجازية النجدية سنة ١٩٢٦ أحد المدنيين، واعترفت بها الحكومة الهاشمية، ثم حكومة ابن سعود، ومُنِحت كل الصلاحيات التي تمنح للقنصليات الأخرى. وعلى الجانب الآخر أنشأت الحكومة السعودية سنة ١٩٢٦ وكالة لها في القاهرة عُرفت باسم «الوكالة الحجازية» وتولاها الشيخ فوزان السابق، وحلت محل الوكالة الهاشمية، ولكن لم تعترف الحكومة المصرية بالوكالة الحجازية في القاهرة لرفضها الاعتراف بحكومة ابن سعود، و لم تعاملها معاملة القنصليات الأخرى، و لم يتمتع وكيلها بالامتيازات التي كانت تُمنح لغيره. (٥٦)

وتتعلق المادة الرابعة بتسهيل أداء فريضة الحج وإقامة الشعائر الدينية الإسلامية للمسلمين من الرعايا المصريين، وأن يأمنوا على أموالهم وأنفسهم، أما المادة الخامسة فتتضمن موافقة الحكومة السعودية على أن تتولى مصر مهمة التطوع لعمارة الحرمين الشريفين، وإصلاح مرافقهما العامة، من تعبيد الطرق التي يسلكها الحجاج، وإضاءة الحرمين وما حولهما، وتوفير مياه الشرب، وغير ذلك من المنشآت التي توفر راحة الحجاج، وتحافظ على صحتهم.

ونصت المادة السادسة على أن يتعهد الطرفان بأن يقوما في أقرب فرصة ممكنة – بعد توقيع هذه المعاهدة –.بمفاوضات ودية لحل المسائل المعلقة بينهما، وعقد اتفاقيات جمركية وبريدية وملاحية، وغير ذلك من الشؤون التي تهم بلديهما. وجاء في المادة السابعة والأخيرة أن مواد هذه المعاهدة من أصلين باللغة العربية، ويجري إبرامها والتصديق عليها من الطرفين في أقرب وقت ممكن، ولا تصبح نافذة إلا منذ تاريخ تبادل وثائق التصديق في القاهرة. وفي ١٩٣٦/٥/٨ أجاز الطرفان المعاهدة، ونشرت نصوصها في البلدين في آن واحد.

- **المفاوضات وعقد معاهدة ١٨ نوفمبر ١٩٣٦:**

اتفق الطرفان المصري والسعودي على تأجيل المسائل المعلقة الخاصة بالنواحي الدينية إلى شهر نوفمبر سنة ١٩٣٦ للأسباب الآتية:

١–الظروف السياسية التي تعرضت لها مصر في هذه الفترة غير ملائمة للتفاوض في هذه المسائل؛ لانشغال الهيئات الرسمية.بمراسم انتقال السلطات الدستورية إلى الملك فاروق، وبمسألة الوصاية على العرش.(٥٧)

٢–انشغال القادة الوطنيين بالمفاوضات مع إنجلترا لعقد معاهدة صداقة معها.

٣–مدة التفاوض لعقد المعاهدة بين الجانبين المصري والسعودي قصيرة، لارتباطها بالسلطات

التي خوّلها الدستور لعلي ماهر رئيس الوزراء، التي حدد لها فترة عشرة أيام تنتهي يوم ٨ مايو، ورغبة علي ماهر الشديدة في التوقيع على المعاهدة.

٤–إجبار الضغط الشعبي والظروف الخارجية البلدين على سرعة التفاهم، وهو ما ترتب عليه انشغال مصر بالملك عبد العزيز وترك المسائل الأخرى إلى موعد يحدد بعد ذلك.

٥–الخلافات بين الجانبين لم تكن جوهرية بقدر ما كانت شخصية، أمكن التغلب عليها بوفاة الملك فؤاد.

وفي نوفمبر سنة ١٩٣٦ رأت حكومة الوفد التي حلت محل حكومة علي ماهر أن تستكمل المفاوضات مع الحكومة السعودية؛ فقاد تلك الجولة مصطفى النحاس.[٥٨] وتركزت المفاوضات في مسائل أربع: المحمل، وكسوة الكعبة، وتوزيع الصدقات، والجنسية.

بدأت المفاوضات باجتماع تمهيدي لمصطفى النحاس(١٨٧٦ – ١٩٦٥م) في مكتبه مع عبد الحميد بدوي رئيس قضايا الحكومة وكبير المستشارين الملكيين، والشيخ محمد البنا مدير إدارة الشئون الدينية؛ وذلك لبحث مسألة أوقاف الحرمين من الوجهتين الشرعية والقانونية، تمهيدًا لمقابلته فؤاد حمزة وكيل الخارجية السعودية في الساعة الحادية عشرة صباح يوم الأربعاء الموافق ٤ نوفمبر. وتقابل الرجلان في الموعد المحدد في دار رئاسة مجلس الوزراء، وجرت المفاوضات بينهما في جوّ ودي تمثّلت في تصريحات فؤاد حمزة للصحفيين عقب انصرافه من رئاسة مجلس الوزراء؛ إذ قال لمندوب جريدة «كوكب الشرق»: إن المفاوضات كانت عن «المسائل المعلقة بين مصر والحجاز بصفة إجمالية»، وقال لمندوب «البلاغ»: «إن الروح السائدة تبشر بكل خير، وإن المحادثات لم تتم، وهي تستدعي اجتماعًا آخر، ولكني متفائل جدًا؛ لما تغمرنا به الحكومة المصرية من العطف والود والصداقة».[٥٩] وقال لمندوب جريدة «المقطم»: «إنني ما شعرت مدة اجتماعي به (مصطفى النحاس) أنني أمام مفاوض غريب عني أفاوضه بل أمام رجل دولة تجسم الإخلاص والصدق في كل حركة من حركاته وسكنة من سكناته، وأفعم قلبه بحب الإسلام والعرب»، ثم قال: «وقد صرت بعدما سمعته اليوم متفائلاً بقرب تسوية المسائل المعلقة تسوية مرضية موافقة، يرضاها المسلمون ويرتاحون إليها، ولا أظن المسألة تستغرق سوى بضعة أيام».[٦٠]

وقالت جريدة «الأهرام» في هذا الصدد: إن المفاوضات تناولت مسألتين هامتين: أوقاف الحرمين الشريفين، وسفر المحمل المصري إلى الأقطار الحجازية. وكانت وجهة نظر الحكومة

السعودية في الجلسة الأولى للمفاوضات أن تدفع مصر إليها المبالغ الموقوفة على الحرمين منذ سنة ١٩٢٦ وحتى سنة ١٩٣٦، على أساس أن هذه الأموال وقف عليهما ولا يجوز شرعًا التصرف فيها، أو إنفاقها في وجوه غير التي أوقف، على حين كانت وجهة نظر الحكومة المصرية أن هذه المبالغ قد أنفقت في وجوه خيرية أخرى؛ ولهذا فهي تقترح أن يبدأ الدفع من تاريخ تسوية المسائل بين البلدين بغير الرجوع إلى الماضي، مع إعادة الحال إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٩٢٦.

أما المحمل فترى الحكومة المصرية أن يعود دوره كما كان من قبل؛ فيسافر سنويًا في موكبه المعتاد، على حين كانت وجهة نظر الحكومة السعودية غير ذلك.[٦١] وتوقفت المفاوضات عند هذا الحد على أن تستأنف في اجتماع آخر بعد استطلاع فؤاد حمزة لرأي حكومته في المسائل المطروحة عليه. ثم توالت الاجتماعات بين الجانبين المصري والسعودي، وكان بينهما ذلك الاجتماع الذي عُقد في ١٥ نوفمبر. وتقول جريدة «المقطم»: إن الاتفاق تمّ مبدئيًا على حل المسائل المعلقة كما يلي:

بالنسبة لمسألة الصدقات تقرر أن تستصدر الحكومة قراراً من المحكمة الشرعية يلغي القرار الذي أصدرته سنة ١٩٢٥ بجواز صرف أموال البِرّ الموقوفة على أهل الحرمين في جهات خيرية أخرى؛ وبذلك يصحّ لها إرسال الصدقات في هذا العام كما كانت ترسلها، أما أموال السنين العشر الماضية، فلا تزال في البحث، ويطالب الجانب السعودي بإرسالها؛ لأنها من حقوق سكان الحرمين فلا يجوز صرفها على غيرهم. وأما طريقة توزيعها فاقترح الجانب المصري أن توزع بواسطة هيئة يشترك فيها المصريون، ولكن الجانب السعودي عارض هذا الاقتراح معارضة شديدة، وتقرر إبقاء القديم على قدمه. وأما مسألة الكسوة، فتم الاتفاق على إرسالها حسب المعتاد؛ فتنقل مع المحمل إلى الحجاز، وتكسى بها الكعبة المشرفة. وأمّا المحمل فاقترح الجانب المصري أن يُرسَل حسب المعتاد، ولكن الجانب السعودي عارض دخول القوات العسكرية المصرية الحجاز لعدم وجود حاجة إليها بسبب استتباب الأمن، فتقرر ذلك مبدئيًا. وستحتفل الحكومة السعودية بأمير الحج المصري وحاشيته حسب المعتاد. أما المحمل نفسه، فعارض الجانب السعودي دخوله مكة وتقول الجريدة: إن هذه المسألة مازالت معلقة، وترجو أن تُبتَّ بطريقة مناسبة.[٦٢]

وكان من بين الاجتماعات أيضًا الاجتماع الذي عُقد في دار المفوضية السعودية بين فؤاد حمزة وفوزان السابق من ناحية، وعبد الحميد بدوي من ناحية أخرى، وذلك يوم الثلاثاء

الموافق ١٩٣٦/١١/١٧، وتم الاتفاق فيه على الأسس النهائية لحل جميع المشاكل المعلقة بين البلدين، وعلى تحرير صيغة الاتفاق النهائي المنوي عقده. ثم رفع مشروع الاتفاق مساء ذلك اليوم إلى رئيس الوزراء في مجلس الشيوخ، فاطلع عليه، ثم اطلع عليه الوزراء تمهيدًا للتوقيع عليه في دار الرئاسة يوم الأربعاء الموافق ١٨ نوفمبر ١٩٣٦.

وفي صباح اليوم التالي اجتمع فؤاد حمزة وفوزان السابق مع رئيس الوزراء، وحضر الاجتماع واصف غالي وزير الخارجية المصري، وعبد الحميد بدوي كبير المستشارين، ووقِّع في الاجتماع على الاتفاق الذي كان عبارة عن ثلاث مذكرات مزدوجة تبودلت بين مصطفى النحاس نيابة عن المملكة المصرية، وفؤاد حمزة نيابة عن المملكة العربية السعودية، ثم مذكرة رابعة صادرة عن فؤاد حمزة وحده. وتبادل رئيس الوزراء ووزير الخارجية مع ممثلي الحكومة السعودية عبارات المجاملة والتهاني، واتفق الطرفان على نشر نصوص المذكرات يوم الجمعة الموافق ١٩٣٦/١١/٢٠ في مصر في وقت واحد.[٦٣]

وعندما سأل مندوب جريدة «الأهرام» فؤاد حمزة عن أثر إبرام الاتفاق في نفسه، قال: «إن هذه النتيجة كانت متوقعة نظرًا إلى التعاطف الطبيعي بين البلدين الشقيقين، والحب المتبادل بين الشعبين. وأنا أحمد الله الذي وفقنا هذا التوفيق العظيم الذي أزال السحب التي خيمت وقتاً ما في سماء العلاقات بين الأمتين الصديقتين».[٦٤]

كان الاتفاق إذن عبارة عن سبع مذكرات: ثلاث منها مزدوجة – المذكرة والجواب عليها بالموافقة– والأخيرة صادرة عن ممثل الحكومة السعودية وحده. وكانت هذه المذكرات تشتمل على خمس مسائل: المسألة الأولى خاصة بالمحمل، وتم الاتفاق فيها على أن يسافر المحمل إلى جدة دون أن تصحبه قوة مسلحة، وأن تستقبله الحكومة السعودية هناك، ويبقى فيها حتى ينتهي موسم الحج، ثم يعود إلى مصر مع الحجاج، وعلى أن يسافر المحمل هذا العام (١٩٣٦)، وصدرت إلى وزارة الداخلية أوامر باتخاذ التدابير اللازمة لذلك. والمسألة الثانية خاصة بالكسوة، واتفق فيها على أن تصنع في مصر لا في مكة كما كان يريد الجانب السعودي، وعلى أن ينقش عليها كتابة خاصة تشير إلى أنها صنعت في مصر وأهديت إلى الكعبة المشرفة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود. والمسألة الثالثة خاصة بأوقاف الحرمين، واتفق فيها على أن تطلب الحكومة المصرية من المحكمة الشرعية العليا إصدار حكم بتسليم الصدقات بعد ذلك إلى الحكومة السعودية طبقًا للعادة التي كانت متبعة من قبل، أما مسألة الصدقات المتأخرة منذ حبستها مصر عن الحجاز بمقتضى حكم المحكمة الشرعية في سنة

١٩٢٦ فقد أرجئ النظر فيها إلى فرصة أخرى.

والمسألة الرابعة خاصة بمسألة الجنسية، وقد اتفق فيها على ترك الخيار للحجازيين المتجنسين بالجنسية المصرية، والمصريين المتجنسين بالجنسية السعودية (الحجازية) في أن يختاروا الجنسية التي يرغبون فيها، على أن يعطوا مهلة لذلك مدتها ستة أشهر تبدأ من تاريخ إبرام الاتفاق، مع عدم مساس حق الفرد في البقاء أو الاستقرار في أرض أي البلديْن حتى صدور قانون الجنسية الخاص بالبلد الذي يقيم فيه. والمسألة الخامسة والأخيرة هي عبارة عن تعهد من الحكومة السعودية بألا تفرض رسومًا جمركية أو غيرها على الحجاج قبل أن تخبر الحكومة المصرية بذلك.

وقد صدر ملحق للاتفاق المصري السعودي في إجراءات استقبال المحمل وتوزيع الصدقات في الحجاز، يحتوي على تفاصيل إجراء استقبال عسكري رسمي لوصول المحمل إلى ميناء جدة، ثم يدخل أمير الحج مكة أولاً، ويقول خطاب الملك فاروق في قبول الهدية «الكسوة» ثم ينصرف ليرافق الكسوة عند دخولها الحرم الشريف، وبعد ذلك تُستقبل الكسوة رسميًا في باب الحرم الشريف، وتلقى خطب بين مندوبي الحكومتين، ويستأذن أمير الحج ملك المملكة العربية السعودية في السفر إلى مصر، حاملاً معه الرد الخطي منه إلى ملك مصر، وأخيرًا يقوم أمير الحج إلى وكيل وزارة الخارجية السعودية ببيان يوضح فيه مقدار المبلغ المخصص للتوزيع على الفقراء من الصدقات، ومن فاضل غَلَّة أوقاف الحرمين.(٦٥)

وقد عدلت المذكرتان الثانية والثالثة الخاصتان بالكسوة بمذكرتين في ١٩٤١/٨/١٢، أرادت بهما مصر تغيير صيغة العبارة المنقوشة على الكسوة – التي تقول: «صنعت هذه الكسوة بأمر حضرة صاحب الجلالة ملك مصر، وأهديت إلى الكعبة المشرفة في عهد حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية» التي جرت العادة منذ توقيع الاتفاقية سنة ١٩٣٦ على وضعها – إلى صيغة أخرى تقول: «صنعت هذه الكسوة بأمر المتوكل على الله فاروق الأول ملك مصر، وأهديت إلى الكعبة المشرفة في عهد خادم الحرمين الشريفين عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية» وذلك رغبة من الملك فاروق في كتابة اسمه على ستر الكعبة مجرداً من ألقاب التعظيم متواضعًا لله وتعظيمًا للبيت الحرام. ووافقت الحكومة المصرية على أن تساهم في عمارة الحرمين على نفقتها الخاصة، على أن تطلع الحكومة السعودية على ذلك قبل البدء به.

وقد نوّه خطاب العرش المصري الذي ألقي في حفل افتتاح البرلمان المصري في ١٩٣٦/١١/٢١

بالاتفاق النهائي بين الحكومتين السعودية والمصرية على المسائل المعلقة فقال: «نذكر بالارتياح ما انتهت إليه مفاوضات حكومتنا مع حكومة المملكة العربية السعودية من تسوية المسائل المعلقة بينهما، وبذلك تعزز ما يربطنا بهذا القطر الشقيق من صلات متينة، وسيكون من آثار هذه التسوية إعادة الاحتفال بالمحمل في الموسم القادم بمشيئة الله، وإرسال الكسوة الشريفة إلى بيت الله الحرام، وكذلك سيعاد إحياء التقاليد التي كانت مرعية من قبل، من حيث إعادة صرف الصدقات، واستئناف صرف فاضل غَلَّة أوقاف الحرمين الشريفين في الأراضي المقدسة، والإنفاق منها على فقراء الحجاز، وعمارة الحرمين الشريفين، وإصلاح المرافق المتعلقة بهما وغيرها.[٦٦] وكان لعقد معاهدة ١٩٣٦ بين مصر والمملكة العربية السعودية صداها على مستوى شعبي البلدين، وعلى مستوى العالم العربي، وعلى المستوى العالمي، وكان لها أيضاً نتائج بارزة أثرت في سير الأحداث بعد ذلك.

رابعًا – نتائج المعاهدة:

- **النتائج السياسية:**

اعترفت مصر بمقتضى هذه المعاهدة بالمملكة العربية السعودية دولة حرة مستقلة، وعادت العلاقات السياسية بين البلدين، وتبودل التمثيل السياسي والقنصلي بينهما، وأنشئت مفوضية مصرية في جدة عُين لها عبد الرحمن عزام وزيرًا مفوضًا لمصر سنة ١٩٣٧، وأنشئت مفوضية سعودية في مصر، وعُين لها الشيخ فوزان السابق معتمدًا سنة ١٩٣٦، ورفعت درجة التمثيل السياسي بين البلدين إلى درجة وزير مفوض سنة ١٩٣٨.[٦٧]

وكان من نتيجة عقد المعاهدة وعودة العلاقات السياسية بين البلدين أن سعى الجانبان إلى دعم هذه العلاقات، وظهر ذلك واضحًا في موقف البلدين من القضايا العربية المطروحة على الساحة، وهي: الموقف من مشروعات الاتحاد العربي الجزئية «مشروع الهلال الخصيب، وسورية الكبرى» وتأسيس الجامعة العربية، والقضية الفلسطينية، والقضية الوطنية المصرية، فالمعاهدة إذن خطوة نحو دعم حركة التقارب العربي، وجمع الكلمة العربية، وتصفية الخلافات القديمة.[٦٨]

تطابق الموقف المصري والسعودي من مشروع الهلال الخصيب الذي طرحه رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد، ومشروع سورية الكبرى الذي طرحه الأمير عبد الله أمير شرقي الأردن منذ سنة ١٩٤٣، وهما يقضيان باتحاد سورية ولبنان، وشرقي الأردن وفلسطين، إضافة إلى العراق. ورفض الجانبان المصري والسعودي تلك المشروعات، التي تفرض «صورة وحدوية

عربية من كيان سياسي على آخر».

ولّما دارت المشاورات لتكوين الجامعة العربية، سعى الجانب المصري إلى إقناع الملك عبد العزيز بصدق المشروع، وأنه لن يتخذ أداة لتنفيذ المشروعات الهاشمية التي كانت على الساحة، وأن هذه الجامعة ستضم دولاً أعضاء لكل منها استقلالها وسيادتها؛ لذلك وقع المندوب السعودي على بروتوكول الإسكندرية بعد أن رفض التوقيع عليه إلى أن يتخذ رأي الملك عبد العزيز.

وتوثقت الروابط بين البلدين عندما قام الملك فاروق بزيارة مفاجئة للمملكة في ٢٥،١،١٩٤٥ فيما عُرف بـ «لقاء رضوى»،[٦٩] واستغرقت الزيارة أكثر من أسبوع، واستقبله الملك عبد العزيز في مدينة كاملة من الخيام أقيمت في سهل منبسط بين شرم ينبع وجبل رضوى.[٧٠] وكانت هذه الزيارة تستهدف دعم الروابط بين البلدين، وإقناع الملك عبد العزيز بالتوقيع على ميثاق الجامعة العربية. وأصدرت وزارة الخارجية المصرية بيانًا عقب عودة الملك فاروق إلى بلاده جاء فيه: «كانت الزيارة شخصية، ولم تكن للبحث في موضوعات معينة؛ ولكنها في الواقع كانت أعظم من أية زيارة رسمية أو سياسية يقصد بها حل مشكلة معينة؛ لأنها دعمت ما تمّ من اتفاقات، وفتحت الطريق أمام اتفاقات جديدة، وحلت أمورًا، ومكّنت صداقة، وأوجدت محبة، وجعلت اتحاد العرب أمرًا ملموسًا.[٧١]

- **النتائج الاقتصادية:**

كان من نتائج المعاهدة أن قامت الحكومة المصرية بتنفيذ معظم المشروعات التي تقدم بها طلعت حرب. وكانت الحكومة السعودية قد طلبت من طلعت حرب اختيار أحد مهندسي الطرق المصريين لمعاينة الطريق بين المدينة المنورة وجدة ومكة، وإبداء الرأي في أحسن الطرق التي تتخذ لراحة الحجاج أثناء سفرهم في هذين الطريقين. واتصل طلعت حرب بوزير المواصلات المصري وخاطبه في هذا الشأن، وعرض عليه الوزير قائمة من المهندسين الذين يصلحون لهذه المهمة؛ وذلك لاختيار مَنْ يريد. وطلبت القنصلية المصرية في جدة ترشيح عشرين شابًا من المتعلمين للالتحاق بخدمة الشركات في الحجاز.

وتقول صحيفة «الأهرام» في هذا الصدد: إن «بنك مصر وجه اهتمامًا كبيرًا إلى البلاد العربية؛ فقد زار الأقطار الحجازية حضرة صاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا لدراسة شؤونها الاقتصادية والعمرانية، وأرسل مندوبين قاموا بشتى الأبحاث هناك، ورُفِعت إلى جلالة الملك عبد العزيز، وإلى رجال حكومته، وإلى ولي الأمر في الحكومة المصرية. وقد تفضل حضرة

صاحب الجلالة الملك عبد العزيز فأرسل إلى سعادته كتابًا يبدي فيه إعجابه بهذه المهمة العالية والبيانات القيمة التي هي الآن موضع دراسة الجهات المختصة».[٧٢]

وعلقت جريدة «الاتحاد» على ذلك أيضًا بقولها: «إن سعادة طلعت حرب باشا يرجع إليه النصيب الأوفر من الفضل والتفكير في هذه المشروعات، وأنه قد أخذ فعلاً بأسباب تنفيذها». ونشرت الصحيفة نفسها تقريرًا وضعه أحد المهندسين عن «الحالة العمومية في الحجاز من الناحية الإدارية والفنية، وبحث مشكلة المياه، وإنشاء المدارس الصناعية، وصناعة التطريز والفضة، وإنشاء ورشة للميكانيكا في مكة المكرمة، ومشروعات عن توزيع المياه في المدن، وإضاءة مكة المكرمة بالكهرباء، وإنشاء طريق يوصل جدة بمكة، وإنشاء سكة حديدية بين جدة ومكة، وإنشاء مصنع للغزل والنسيج وآخر للحوم المحفوظة في مِنى، وثالث لصناعة التمر، ومشروع لإصلاح المشعر الحرام، وغير ذلك من مواضع الإصلاح».[٧٣]

وفي أكتوبر ١٩٣٩ – حسب ما جاء في المادة الخامسة من المعاهدة المصرية السعودية الخاصة بأن تتولى مصر مهمة التطوع لعمارة الحرمين الشريفين وإصلاح المرافق المتصلة بها – أجريت الاتصالات بين الحكومتين لكي تقوم الحكومة المصرية بمشروع تعبيد الطرق بين جدة وعرفات، وتعبيد المحلات الخطرة في طريق المدينة ومكة، وكذلك بمشروع الماء والكهرباء في مكة، ووقِّعت اتفاقية بين الجانبين في هذا الشأن في ٥ أكتوبر من العام نفسه.

وفي ١٩٤١/٥/٣١ عقدت اتفاقية تجارية بين البلدين لإنهاء العلاقات التجارية بينهما، وتضمنت: تصدير بعض السلع بين الجانبين، ومعاملة كل دولة الطرف الآخر معاملة الدولة الأكثر امتيازًا بالنسبة للحاصلات والمصنوعات المنتجة في المملكة العربية السعودية، التي تستورد لتستهلك فيها، أو تصدر منها، أو تعبرها إلى بلاد أخرى، وتكون المعاملة بالمثل، وأن تقيم مصر معرضًا لمصنوعاتها في جدة. وأعدت المملكة المكان المطلوب، ورحّبت بالبعثات التجارية المصرية التي تفد إليها ولاسيما في موسم الحج.

- **النتائج الاجتماعية:**

دعمت المعاهدة العلاقات الاجتماعية الوثيقة بين الشعبين المصري والسعودي، وغلب عليها طابع المودة والمحبة والإخاء نحو إخوة أعزاء تربطهم روابط وثيقة، من اللغة والدين التاريخ، والدم أيضًا؛ فقد ثبت أن وجود القبائل العربية في مصر يرجع إلى هجراتها إليها من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر وسيناء.

• **النتائج الدينية:**

ترتب على توقيع المعاهدة أن أخذت الجهات المسئولة في مصر تستعد لتنفيذ بنود الاتفاق ولسفر المحمل في موسم الحج سنة ١٩٣٧ ونشرت بعض الصحف المصرية تفاصيل عن تكلفة الكسوة الشريفة التي بلغت سنة ١٩٢٥ – وهي آخر سنة أرسلت فيها – نحو ثمانية آلاف جنيه، غير نفقات الجنود الذين كانوا يرافقونها إلى الحجاز، ونشرت صورة الطلب الذي تقدمت به وزارة الداخلية إلى السراي الملكية للموافقة على تكليف الخطاط الخاص بالملك فاروق بكتابة العبارات المتفق عليها في المعاهدة لتطريزها بأسلاك الذهب والفضة على الحرير الخاص. ونشرت أيضًا طلب وزارة الداخلية الخاص بمطالبتها وزارة الزراعة بالإبل التي ستحمل الكسوة إلى الكعبة المشرفة، أو بشراء جملين صالحين لتدريبهما قبل فوات الأوان. (٧٤)

وقررت وزارة الصحة إرسال بعثة طبية إلى الحجاز طبقًا للتقاليد التي جرت عليها العادة كل عام، للعناية بصحة الحجاج المصريين وغير المصريين. ويرأس بعثة الحج لذلك العام محمود بسيوني رئيس مجلس الشيوخ. واقترحت وزارة الحربية على وزارة الداخلية إقامة سرادق كبير في ميدان صلاح الدين المجاور للقلعة للاحتفال بسفر المحمل في ١٩٣٧/٢/١٢. وصدر قرار مجلس الوزراء بتشكيل لجنة خاصة تتولى مشروعات العمارة والإصلاح في الحرمين الشريفين، وإعادة صرف الصدقات لفقراء الحجاز.(٧٥) وقد تم سفر المحمل في ذلك العام على ما اتفق عليه في المعاهدة.

• **النتائج العلمية والثقافية:**

نتج من المعاهدة أيضًا أن مصر أرسلت مجموعة من المدرسين المصريين للتدريس في المملكة العربية السعودية بناءً على طلب مديرية المعارف السعودية، وأرسلت المملكة العربية السعودية بعثة من الطلاب السعوديين إلى مصر لاستكمال تعليمهم بالمدارس المصرية والأزهر. وفي إطار التعاون العلمي والثقافي والديني بين البلدين تلقى الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر من الملك عبد العزيز مجموعة قيمة من الكتب العربية والإسلامية، وأمر الشيخ بإيداعها مكتبة الأزهر.(٧٦)

وعلقت صحيفة «صوت الحجاز» على ذلك بقولها: إن مصر أول الأقطار القريبة إلى السعودية لما يجمع البلدين من روابط العروبة والجوار، واللغة والدين، ووصفت مصر بأنها «حبيبة إلى نفوس السعوديين بما تقدمه لأبنائهم من نتائج رسم جيد وفوائد رئيسية عامة في العلوم والأعمال».(٧٧) ونشرت جريدة «أم القرى» أن: «السعودية تقدر للحكومة المصرية هذه العناية الجليلة بطلابها».(٧٨)

• **النتائج الإدارية:**

كان من النتائج أيضًا أن سعت المملكة العربية السعودية إلى نقل الكثير من أنظمة الإدارة المصرية؛ إذ تلقت وزارة الخارجية المصرية من القنصل المصري في جدة أن أحد أعضاء مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية أخبرها بأن المجلس اعتزم إدخال تعديل في طائفة من القوانين واللوائح، ويهمه الاطلاع على النظم الخاصة بتحديد اختصاصات إدارات وزارة التجارة والصناعة المصرية؛ فأرسلت وزارة الخارجية المصرية هذا الطلب إلى وزارة التجارة والصناعة المصرية؛ فطلب وزير التجارة والصناعة إلى المختصين في الوزارة موافقة وزارة الخارجية على ما طلبه عضو مجلس الشورى.[٧٩] وأرسلت الحكومة السعودية إلى مصلحة التنظيم في مصر تطلب مهندسًا لإصلاح الطرق بين مكة والمدينة؛ فاستجابت الحكومة المصرية في الحال، وأصبحت مصر المصدر الأول لتزويد السعودية آنذاك بكل الخبرات التي تحتاج إليها لبناء دولتها الجديدة.

والحق أن عهدًا جديدًا بدأ بين الدولتين، وأصبحت روح الأخوة والتضامن تسيطر على العلاقات بينهما عقب توقيع معاهدة مايو ١٩٣٦، وحلّ المسائل المعلقة. وحمل لهما المستقبل علاقة أكثر مودة وصداقة، وانتهى عهد الجفاء والتوتر، وانطلقت قدرات الشعبين لتصنع الكثير من التقدم، وتبني أفضل جسور للتعاون لحياة أفضل تحقق خير الشعبين الشقيقين. ومن هنا كانت أهمية سنة ١٩٣٦ في تطور العلاقات بين البلدين؛ فهو عام فاصل بين مرحلتين من مراحل تطور هذه العلاقات.

الخاتمـة

من العرض السابق لموضوع معاهدة ١٩٣٦ بين المملكة المصرية والمملكة العربية السعودية نخرج بعدة ملاحظات:

- أن الخلاف بين المملكة المصرية والمملكة العربية السعودية كان خلافًا شخصيًا بين الملك عبد العزيز والملك فؤاد. وسبب هذا الخلاف هو طموح الملك فؤاد إلى منصب الخلافة، فقد صورت له أوهامه أن الإجراءات التي كان يقوم بها الملك عبد العزيز لتوطيد حكمه وتثبيت دعائمه في المنطقة التي يسيطر عليها، هي تمهيد لإعلان خلافته على العالم الإسلامي، ولاسيما أنه يسيطر على الحرمين الشريفين، مع أن الملك عبد العزيز لم يكن يقصد من إجراءاته هذه إعلان خلافته؛ فهو أعلن نفسه ملكاً على الحجاز بناءً على رغبة أهالي الحجاز، و لم يرسل وفدًا إلى مؤتمر الخلافة في القاهرة؛ لأنه أيقن أن هدف المؤتمر هو مبايعة الملك فؤاد بالخلافة؛ ما يترتب عليه مساس سيادة الحرمين الشريفين اللذين في سيطرته وضمن منطقة نفوذه. وقد عقد المؤتمر الإسلامي في مكة لبحث السبل التي تكفل راحة الحجاج، وأراد تأمين بلاده من أي تدخل خارجي؛ لذلك أراد إلغاء القوة العسكرية التي ترافق المحمل المصري؛ لأن وجودها مساس لسيادة بلاده. ولّما لاحظ تحول بعض الحجازيين عن جنسيتهم أثناء حكم سلفه، أراد منع ذلك بإصدار قانون الجنسية. إذن أسباب الخلاف كانت بالنسبة للملك عبد العزيز إجراءات لتوطيد نفوذه وتثبيت مركزه، على حين كانت غير ذلك للملك فؤاد؛ لذلك أصرّ على عدم الاعتراف بوضع الملك عبد العزيز في الحجاز.

- جرت محاولات متعددة لإزالة أسباب التوتر هذه وتقريب وجهات النظر بين البلدين، وكانت معظم هذه المحاولات من الملك عبد العزيز نفسه، الذي استمر في إلحاحه منذ بدأت حالة التوتر حتى فاض به الأمر من عدم استجابة الملك فؤاد لمحاولاته وإصراره على إثارته وعدم الاعتراف به. وكانت للمحاولات التي كانت تقوم بها بعض الهيئات الشعبية أثر كبير في تقريب وجهات النظر بين البلدين؛ فكان لنجاح الوفد الشعبي الذي أرسلته مصر لإنهاء الحرب اليمنية السعودية وتوقيع المعاهدة بين المتحاربين أثر كبير في نفوس السعوديين، ورغبتهم في عودة العلاقات الوثيقة التي تربط بين البلدين.

- كان لمحمد طلعت حرب دور كبير في تقريب وجهات النظر والتمهيد لعقد المعاهدة بين البلدين؛ وذلك لزيارته السعودية قبل عقد المعاهدة بثلاثة أشهر تقريبًا، ولجهوده

في القيام بمشروعات كثيرة خدمت مرافق الحياة في المملكة العربية ووقّع معاهدتين إحداهما بشأن المشاريع العمرانية في الحجاز، والأخرى بشأن تنمية العلاقات التجارية بين البلدين. وكان لإصرار الحجاج المصريين على الوفود كل عام إلى الحجاز – رغم تخلي الحكومة المصرية عنهم وعن حمايتهم – أثر كبير في هذا المجال. وكانت هناك محاولات أخرى تسعى إلى عرقلة الجهود المبذولة لإزالة التوتر بين البلدين.

– تغيير موقف الملك فؤاد قبل وفاته بقليل نتيجة الضغط عليه من الشعب، وبريطانيا، والمرض الذي تعرض له. وتغير موقف بريطانيا من السلب إلى الإيجاب نظرًا إلى بدء المفاوضات مع الحكومة المصرية لعقد معاهدة معها، وللظروف الدولية التي أدت إلى الاختلال في التوازن الدولي، ومحاولة إيطاليا التقريب بين السعودية واليمن.

– استمرت فترة المفاوضات لعقد معاهدة ٧ مايو سبعة عشر يومًا، وهي فترة قصيرة للتفاوض في حل كل المشكلات بين البلدين. وارتبطت هذه المعاهدة بعلي ماهر رئيس الوزراء، الذي كان له الفضل في إقناع فؤاد حمزة بالتوقيع على المعاهدة قبل مرور عشرة الأيام التي حددها الدستور المصري لبقاء سلطات الملك في يد مجلس الوزراء، وإرجاء بتّ المسائل الدينية إلى مرحلة تكميلية من المفاوضات تعقد في نوفمبر.

– كانت المعاهدة نصرًا لوجهة النظر السعودية التي بمقتضاها اعترفت مصر بالمملكة العربية السعودية دولة حرة مستقلة، ونقش اسم الملك عبد العزيز على الكسوة، ومنعت دخول المحمل والقوة العسكرية الحجاز، وأعادت صرف أوقاف الحرمين. وجاءت المعاهدة مكملة لسياستها بعقد الاتفاقات مع البلاد المجاورة.

– كان من نتائج المعاهدة التعاون الثنائي بين البلدين في حل المشكلات العربية، مثل: وقوفهما ضد مشروعات الوحدة العربية الجزئية، وسعيهما لتكوين الجامعة العربية، ودعم القضية الفلسطينية. وكان من نتائجها أيضاً تبادل الزيارات بين الملكين، التي كان لها أثر كبير في دعم الروابط الثنائية بين البلدين، وتأييد السعودية للقضية المصرية، وسعيها لدى إنجلترا وأمريكا لحل هذه القضية.

الهوامش

(١) راجع: حسام محمد عبد المعطي، العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ١٧ – ٧٤

(٢) البحر الأحمر المنفذ الرئيس للتجارة الشرقية، والمعبر الوحيد إلى الحجاز منذ العصر الفاطمي، راجع: السيد عبد العزيز سالم، البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٣، ص ٢١ – ٢٩

(٣) راجع: نهلة أنيس محمد مصطفى، الهجرات العربية إلى مصر وأثرها في اللهجة المصرية وأثر ذلك على المجتمع (دورية كان التاريخية (القاهرة). العدد التاسع عشر، مارس ٢٠١٣، ص ٤٨ – ٦٢

(٤) من الأسباب التي دعت إنجلترا إلى اتخاذ موقف ميال إلى ابن سعود رفض الشريف حسين للمعاهدة الإنجليزية الحجازية التي استمرت المفاوضات فيها ثلاث سنوات، ورفضه تدخل بريطانيا في الحجاز، وتدخلها في فلسطين أيضاً. انظر: أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث وملحقاته، ط ٢، بيروت ١٩٥٤، ص ٣٩٧ – ٣٩٨

(٥) حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين، ط٢، القاهرة [د.ن]، ١٩٤٦، ص ٢٥٠

(٦) على أساس أن هذه البعثة يمكن أن تبلغ سوء الحالة للحجاج، وبالتالي يمكنها أن توقف موسم الحج. انظر: أمين الريحاني، تاريخ نجد، ص٣٩٧ – ٣٩٨

(٧) سامي مهران، حكايات برلمانية (١٨٦٦ – ١٩٥٢)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ٥٨

(٨) رأفت الشيخ، دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر، الزقازيق: مكتبة الدراسات التاريخية والعلاقات الدولية، ١٩٨٣، ص١١٢

(٩) حافظ وهبة، خمسون عامًا في جزيرة العرب، ط٢، القاهرة، ١٩٦٠، ص١٣١

(١٠) حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين، ص٢٥٦

(١١) المقصود: ما حدث عند استيلاء الدولة السعودية الأولى على الحجاز، وموقفها من العادات غير الإسلامية، وهدم القباب، ورفع الذخائر والجواهر من على كسوة قبر الرسول(ﷺ). راجع: رأفت الشيخ، التاريخ الحديث، ص١١٢

(12) Ameen Fares Rihani، Arabian Peak and Desert: Travels in Al–Yaman.– London: Constable and Co. Ltd.،1930. p. 228.

(١٣) عبد الله محمد عرباوي، «موقف مصر من ضم بن سعود للحجاز ١٩٢٤ – ١٩٢٦»، ندوة العلاقات المصرية السعودية في النصف الأول من القرن العشرين، الشرقية، جامعة الزقازيق بالتعاون مع رابطة الجامعات الإسلامية، شعبان ١٤٠٧هـ، إبريل ١٩٨٧ (م١، ص١٣)

(١٤) رأفت الشيخ، التاريخ الحديث، ص١١٣

(١٥) إسماعيل أحمد ياغي، محمود شاكر، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر (٩٨٧ – ١٤٠٠هـ، ١٤٩٢ – ١٩٨٠م)، الرياض، دار المريخ، ١٩٩٥ (ج١، الجناح الأسيوي، ص ٧٧)

(١٦) راجع: قاسم عبده قاسم، علي السيد علي، الأيوبيون والمماليك: التاريخ السياسي والعسكري، الجيزة، عين للبحوث والدراسات، ١٩٩٥، ص ١٢٨ – ١٣٢

(١٧) محمد حسين هيكل، مذكرات في السياسة المصرية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١ (ج،١ ص٤٠١)

(١٨) نازك زكي، التكوين السياسي والاجتماعي للمملكة العربية السعودية (١٩٠٢ – ١٩٣٢)، القاهرة، كلية البنات، جامعة عين شمس، ١٩٨٥، ص١٧٢(أطروحة دكتوراه)

(١٩) نازك زكي، التكوين السياسي، ص ١٧٣

(٢٠) حافظ وهبة، خمسون عامًا في جزيرة العرب، ص١٣٢

(٢١) المرجع نفسه، ص١٤٥

(٢٢) سيد أحمد محمد، المملكة العربية السعودية وسياستها الخارجية (١٩٢٤ – ١٩٥٣)، القاهرة، كلية البنات، جامعة عين شمس، ١٩٧٥، ص٢٧١ (أطروحة دكتوراه غير منشورة)

(٢٣) البلاشفة: الاسم الذي عُرف به أتباع لينين مؤسِّس الحزب الشيوعي في روسيا. وهو مأخوذ من الكلمة الروسية (بولشفيك) التي تعني الأغلبية أو الأكثرية.

(٢٤) سيد أحمد محمد، المملكة العربية السعودية، ص٢٧٢.

(25) H. St. John Philby، Saudi Arabia.– London: Ernest Benn Ltd، 1955. P. 299.

(٢٦) مديحة أحمد درويش، العلاقات السعودية المصرية (١٩٢٤ – ١٩٣٦) إشراف: السيد رجب حراز، الجيزة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٨، ص٣٠١، (أطروحة دكتوراه غير منشورة)

(٢٧) سيد أحمد محمد، المملكة العربية السعودية، ص ٢٧٤

(٢٨) نازك زكي، التكوين السياسي، ص١٧٤. يقول البعض: إن الحجاز كانت بلاد فقيرة تعيش على الحج، وخاصةً القافلة المصرية. انظر: نبيه بيومي، تطور فكرة القومية العربية في مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥، ص١١٦

(٢٩) نازك زكي، التكوين السياسي، ص ١٢٧

(30) Philly، Saudi Arabia، p. 318.

(٣١) لم يلبِّ نداء ابن سعود لعقد هذا المؤتمر سوى فريق من مسلمي الهند وجمعية الخلافة هناك، وكان من رأيها أن يحكم الحجاز هيئة من ممثلي الشعوب الإسلامية فى العالم؛ لهذا خشي أهل نجد أن ينفذ هذا الرأي، فسارعوا إلى إعلان ابن سعود ملكًا عليهم. راجع: أمين الريحاني، تاريخ نجد، ص ٤٢٧

(٣٢) نازك تركي، التكوين السياسي، ص ١٢٨

(٣٣) فخر الدين الأحمدي الظّواهِرِي، السياسة والأزهر: من مذكرات شيخ الإسلام الظّواهِرِي،القاهرة، مطبعة الاعتماد، ١٣٦٤هـ، ١٩٤٥م، ص٢١٥.

(٣٤) عُقد المؤتمر في مكة سنة ١٩٢٦، واشترط ابن سعود على المؤتمرين عدم الخوض في الأمور السياسية، ومنها تحديد مصير الحجاز، ولكن المؤتمر فشل، كما فشل مؤتمر القاهرة.

(٣٥) مديحة درويش، العلاقات السعودية، ص٣٤٦. نازك زكي، التكوين السياسي، ص١٧٦

(٣٦) نازك زكي، التكوين السياسي، ص ١٧٦

(٣٧) من مهام التكية المصرية القيام بالأعمال الخيرية مثل: علاج المرضى، وإطعام المساكين، وكانت ملجأ للعربان، والحجازيين، والنجديين المعوزين، ومحط رحال السائلين والمحرومين. انظر: مديحة درويش، العلاقات السعودية، ص٣٥٣

(٣٨) مديحة درويش، العلاقات السعودية، ص٣٥١ – ٣٥٢. نازك زكي، التكوين السياسي، ص١٧٧

(٣٩) جزيرة تيران عند قاعدة خليج العقبة تجاه رأس محمد، أما صنافير فهي شرق تيران. وتتحكم الجزيرتان في مدخل الخليج. وكانت هاتان الجزيرتان مهجورتين ولا تستعملان إلا كقاعدة لصيد الأسماك، ولكن بعد بداية الاهتمام بخليج العقبة بدأت تتضح أهميتهما لتحكمهما في مدخل الخليج، واتخاذهما في كثير من الأحيان مراكز وقواعد لصيد الأسماك فيه. نازك زكي، التكوين السياسي، ص١٧٧

(٤٠) راجع: حامد سلطان، مشكلة خليج العقبة، الجيزة، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة القاهرة، ١٩٦٧، ص١٦. حلمي عبد الكريم الزعبي، «الإستراتيجية الصهيونية للسيطرة على البحر الأحمر في الماضي والحاضر والمستقبل»، مجلة شؤون عربية (تصدر عن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتونس)، العدد ٤٧، سبتمبر ١٩٨٦. ص١٩٤ – ٢٠٣

(٤١) عن دور حزب الوفد في الحياة السياسية المصرية، راجع: محمد فهيم أمين، الوفد ودوره التاريخي في الحركة الوطنية والعمالية والاجتماعية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٢، ص ٤٣ – ٢٣٧

(٤٢) رأفت الشيخ، تاريخ العرب المعاصر، الجيزة، عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٦، ص ١٨٠

(٤٣) الأهرام، ٩ إبريل ١٩٣٦، العدد ١٨٤٣٦

(٤٤) نبيه بيومي، القومية العربية، ص١٢١– ١٢٢

(٤٥) حافظ وهبة، خمسون عامًا، ص١٤٦

(٤٦) مديحة درويش، الدولة السعودية، ص٤٤٠

(٤٧) لم تكن هذه المعاهدة إلا قيدًا جديدًا تضعه إنجلترا في معاصم المصريين، راجع: محمد عبد الرحمن حسين، نضال شعب مصر (١٧٩٨ – ١٩٥٦) الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٠، ص ١١٩ – ١٢٨.

(٤٨) طبقًا للدستور يتمتع مجلس الوزراء بكل سلطات الملك. راجع: محمد حسين هيكل، مذكرات، ج١، ص٤٠٨

(٤٩) الأهرام، ١٢ إبريل ١٩٣٦، العدد ١٨٤٣٩

(٥٠) عايدة السيد، علاقات مصر بدول المشرق العربي (١٩٣٦– ١٩٥٢) إشراف: صلاح العقاد، القاهرة، كلية البنات، جامعة عين شمس، ١٩٨٥، ص١٩٨ (أطروحة دكتوراه غير منشورة)

(٥١) إبراهيم عبد الله، موقف الصحافة المصرية من معاهدة ١٩٣٦ بين مصر والسعودية، ندوة العلاقات المصرية السعودية في النصف الأول من القرن العشرين، الشرقية، جامعة الزقازيق بالتعاون مع رابطة الجامعات الإسلامية، شعبان ١٤٠٧هـ، إبريل ١٩٨٧. (م٢، ص ٢٠ – ٢١)

(52) Philly، Saudi Arabia، p. 299

(٥٣) نبيه بيومي، القومية العربية، ص١٢٩

(٥٤) عايدة السيد، علاقات مصر، ص١٩٨

(٥٥) الوقائع المصرية، ١١ مايو ١٩٣٦، العدد (٦٠)

(٥٦) مديحة درويش، الدولة السعودية، ص٣٦١ – ٣٦٢

(٥٧) بعد استقالة وزارة نسيم باشا خلفتها وزارة علي ماهر الانتقالية إلى حين إجراء انتخابات جديدة لمجلسي الشيوخ والنواب التي كان موعد إجرائها ٢ ،١٩٣٦،٥، وقبل هذا التاريخ بأربعة أيام توفي الملك فؤاد، وانتقلت جميع سلطاته الدستورية إلى مجلس الوزراء، وحدد لها الدستور فترة عشرة أيام تنتهي في ٨ مايو. وكان مقرر في ذلك التاريخ أن يجتمع مجلس الشيوخ والنواب ليحلف الأعضاء اليمين ثم يجتمعا في اليوم التالي (٩ مايو) ليفتح أمامهم مظروف الوصاية، ويحلف الأوصياء اليمين، ثم تستقيل وزارة علي ماهر، وتتولى وزارة الأغلبية الحكم. وفعلاً حدث ذلك واستقال علي ماهر في ١٠ مايو، وألّف مصطفى النحاس وزارته الوفدية الجديدة. محمد حسين هيكل، مذكرات، ج١، ص٤٠٦ – ٤٠٧

(٥٨) عن الوزارات التي تولى رئاستها مصطفى النحاس، راجع: محمود متولي، مصطفى النحاس زعيم الأمة، القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، ٢٠٠٨. (سلسلة رواد الحركة الوطنية، ٩) ص ٤٣ – ٥٤

(٥٩) إبراهيم عبد الله، موقف الصحافة، ص٢٧

(٦٠) المقطم، ١٩٣٦،١١،٤، العدد ١٤٦٢١

(٦١) إبراهيم عبد الله، موقف الصحافة، ص٢٦ ، ٢٧

(٦٢) المقطم، الاثنين ١٩٣٦،١١،١٦، العدد ١٤٦٣٣

(٦٣) المقطم، الأربعاء ١٩٣٦،١١،١٨، العدد ١٤٦٣٥

(٦٤) إبراهيم عبد الله، موقف الصحافة، ص٣٣

(٦٥) إبراهيم عبد الله، موقف الصحافة، ص٣٥

(٦٦) مديحة درويش، الدولة السعودية، ص٤٥٣

(٦٧) سيد أحمد محمد، المملكة العربية السعودية، ص٢٨٢

(٦٨) نبيه بيومي، القومية العربية، ص١٢٣

(69) Philly، Saudi Arabia، Pp. 338 – 339

(٧٠) فاروق عثمان أباظة، «زيارة الملك سعود بن عبدالعزيز لمصر وأثرها في دعم العلاقات السعودية المصرية (١٥رجب ١٣٧٣هـ، ٢٠مارس ١٩٥٤م)» مجلة الدارة (السعودية) متاح بتاريخ ١٦ ،١٠، ٢٠١٣، على الرابط: (www.darah.info)

(٧١) عايدة السيد، علاقات مصر، ص٢١٣.

(٧٢) إبراهيم عبد الله، موقف الصحافة، ص٣٨

(٧٣) إبراهيم عبد الله، موقف الصحافة، ص٤٨

(٧٤) إبراهيم عبد الله، موقف الصحافة، ص٤٢

(٧٥) إبراهيم عبد الله، موقف الصحافة، ص٤٣

(٧٦) إبراهيم عبد الله، موقف الصحافة، ص٤٧

(٧٧) سيد أحمد محمد، المملكة العربية السعودية، ص٢٨٢

(٧٨) مديحة درويش، الدولة السعودية، ص٤٥٦

(٧٩) مديحة درويش، الدولة السعودية، ص٤٥٦

العلاقات الفارسية العُمانية
في عهد الإمام أحمد بن سعيد (١٧٤٤-١٧٨٣)*

موزة عويص علي الدرعي

العلاقات الفارسية العُمانية في ضوء سياسة كريم خان الزند (١٧٥٧-١٧٧٩)

يمكن تحديد المرحلة الثانية من مراحل العلاقات الفارسية العُمانية بوصول أحمد بن سعيد إلى الحكم عام ١٧٤٤، إضافة إلى اغتيال نادر شاه عام ١٧٤٧، و وصول كريم خان الزند إلى السلطة في فارس عام ١٧٥٧. ولكن ما وضع الفترة التاريخية في العلاقات الفارسية العُمانية بين عامَيْ (١٧٤٧-١٧٥٧)، التي تُقدر بعشر سنوات؟

يقول قاسم: «لا نكاد نطالع أي نشاط قام به الإمام أحمد بن سعيد ضد الفرس في تلك الفترة الحرجة التي امتدت من اغتيال نادر شاه عام ١٧٤٧ حتى وصول كريم خان الزند إلى السلطة عام ١٧٥٦» [١]. ربما كانت هذه إجابة للسؤال المطروح أعلاه، ولكن من جانب واحد هو الجانب العُماني، أما من الجانب الفارسي فيقول أمين:«إن مشاكل نادر شاه الكثيرة في أواخر أيامه والثورات العديدة التي نشبت ضده [٢] حالت بينه وبين الاستمرار في رعاية أسطوله الحبيب والاهتمام بشؤون الخليج»[٣]، بل إن هذه المشاكل كانت من بين الأسباب التي اضطرت نادر شاه إلى سحب جزء كبير من قواته من الخليج[٤]. يُضاف إلى ذلك أن تلك الثورات التي قامت ضد نادر شاه وانتهت باغتياله في يونيو عام ١٧٤٧[٥] قد أدخلت بلاد فارس في بحر من الفوضى وصراعات دموية استمرت عشر سنوات[٦]؛ إذ أعلنت كل قيادة في إقليم ما من أقاليم فارس أنها صاحبة السلطة الشرعية؛ ففي مناطق الأفغان والأوزبك في شمال شرقي البلاد ظهر أحمد خان الدوراني، على حين تزعم آزاد خان الأفغاني الحركة في منطقة أذربيجان وطالب بالعرش، وفي منطقة بحر قزوين أصبحت الأقاليم الفارسية في سيطرة محمد حسين خان زعيم قبيلة القاجار، وفي الجنوب الغربي من بلاد فارس تمكن علي مردان خان زعيم قبيلة بختياري من فرض سلطته، وتحالف مع قبيلة الزند التي قادها كريم خان،

* الجزء الثاني.

وسقطت العاصمة أصفهان في أيديهما، وناديا بأحد أفراد الأسرة الصفوية شاهاً على البلاد وهو إسماعيل ميرزا، وتولى الزعيم البختياري علي مردان خان منصب اعتماد الدولة[٧].

وبدأ الصراع بين كريم خان الزند وعلي مردان وإن تعاونا في البداية؛ فاغتيل البختياري علي مردان، وأصبح الزند كريم خان[٨] حاكماً لأقاليم بلاد فارس الجنوبية، ونقل عاصمته إلى شيراز، وغدا عام ١٧٥٧ الحاكم الذي لا ينازع في بلاد فارس، واتخذ لنفسه لقب الوكيل[٩].

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو: إذا كانت بلاد فارس تعيش هذا الجو المشحون بالاضطرابات والصراعات على السلطة والعرش، فلماذا لما يحاول الإمام أحمد بن سعيد استغلال ذاك الوضع المتدهور في فارس والتفوق العُماني عليها؟

إن جزءاً من إجابة هذا السؤال يكمن في حكمة الإمام أحمد وسياسته؛ فمع أن الفرصة كانت ملائمة تقريباً له لكي يحقق لعُمان تفوقها على فارس، إلا أن تنفيذ ذلك في ذلك الوقت ربما كان مغامرة لا تحمد عقباها. وإذا كان الإمام أحمد قد رفع شعار النصر على القوات الفارسية، إلا أن بلاده لم تكن مستعدة لخوض حرب جديدة؛ لأن الحروب الأهلية التي اندلعت مُنذُ أواخر العقد الثاني من القرن الثامن، واستمرت حتى تسّلم الإمام أحمد السلطة رسمياً في أربعينيات القرن الثامن عشر – قد نهكتها. يُضاف إلى ذلك أن الإمام أحمد كان يعمل لدعم أركان حكمه وتنظيم شؤون البلاد في تلك المدة. ويمكن قول: إن اغتيال نادر شاه في تلك الفترة كان في مصلحة الإمام لتثبيت أركان البيت البوسعيدي في الحكم بعيداً عن أي تأثير خارجي ولاسيما التأثير الفارسي، ولوكان نادر شاه على قيد الحياة فلربما تغير الوضع. ونستطيع أن نقول: إن تلك السنوات العشر(١٧٤٧–١٧٥٧) كانت لفارس وعُمان سنوات شُغلتا فيها بترتيب الأوضاع الداخلية للنهوض من جديد؛ ولذلك خلت من وجود احتكاك فعلي بينهما، واستفاد الإمام أحمد بن سعيد من ذلك فأهمل دفع الأموال التي كان يبعث بها سنوياً إلى فارس، واستطاع بذلك أن يُخلص عُمان من آخر مظهر من مظاهر التبعية الفارسية التي نجمت عن الاحتلال الفارسي لبلاده[١٠]. وكان هذا التصرف من الإمام أحمد من الأسباب التي أدت لاحقاً إلى حدوث احتكاك مع كريم خان الزند.

فارس وعُمان...ومواجهات جديدة:

إذا كانت عُمان وفارس قد شُغلتا في ذلك العقد (١٧٤٧–١٧٥٧) الذي سبق استقرار علاقاتهما فإن تلك العلاقات ما لبثت أن عادت لتتوتر من جديد، واتسمت العلاقات بينهما

بالعداء المستمر؛ إذ حاول كريم خان الزند – ما إن نجح في توطيد مركزه في فارس – أن يعيد للبحرية الفارسية بعض ما كان لها من قوة في عهد نادر شاه[١١]. وذكر أحد الباحثين ذلك فقال: كان كريم خان ملتزماً سياسة التوسع الفارسي الذي بدأها نادر شاه في الخليج[١٢]؛ لذلك أخذ يوجه جهوده صوب سواحل الخليج عامة والسواحل العُمانية خاصة لعله يسترجع ما كان لفارس من نفوذ أو تبعية، أو يحظى بموطئ قدم يمكنه من اتخاذ قاعدة للتوسع على امتداد الساحل[١٣]؛ ولذلك يجد المتتبع لسياسة كريم خان الزند أنه وقف جهوده بين سنة ١٧٦٩ وسنة وفاته على إخضاع عُمان وغزوها عدة مرات.

وفي المقابل أولى الإمام أحمد بن سعيد – منذ توليه الحكم – البحرية العُمانية اهتماماً شديداً؛ لما تمثله من أهمية في خدمة سياستها الخارجية. وقد أصبحت عُمان في عهده قوة بحرية كبيرة في الخليج العربي والمحيط الهندي، وتوسعت تجارتها كثيراً، وأصبحت دولة هامة يحسب حسابها على الصعيد الخارجي[١٤]. وبفضل هذه القوة البحرية استطاع أحمد بن سعيد فرض نفوذ عُمان في الخارج، ونقل الحرب الفارسية العُمانية إلى الأرض الفارسية نفسها، أو مواقع أبعد من ذلك[١٥]. ومما يُشير إلى ذلك تلك الحوادث التي جرت بينه وبين كريم خان، وأظهر فيها الأسطول العُماني تفوقه، ووصل إلى المواقع الفارسية الحساسة كبندر عباس وبوشهر ولنجه و....

إن الفوضى التي أعقبت اغتيال نادر شاه أفسحت المجال لمعاودة نشاط القوى العربية في الخليج العربي، الذي لم يقتصر على ساحل دون آخر؛ لأن ازدهار القوى العربية في الساحل الغربي للخليج أدت إلى انتعاش مقابل للقوى العربية المحلية على طول السواحل الشرقية[١٦]، وأصبحت سيطرة قادة القبائل العرب تشمل كل مكان بما فيه الجانب الفارسي. ويشير تقرير هولندي صدر عام ١٧٤٩ إلى أن كل شيخ عربي قد أصبح سيداً مستقلاً.[١٧]وكانت قبيلة بني معين[١٨] التي كانت تقطن في جزيرة قشم[١٩]، ثم سيطرت على جزيرة هرمز[٢٠] من أهم المتنافسين في السيطرة على بندر عباس[٢١].

كانت قبيلة بني معين من القبائل التي دخلت في حلف مع عُمان منذ منتصف القرن الثامن عشر. ومما لاشك فيه أن ظهور مثل هذا التحالف وغيره[٢٢] بزعامة عُمان كان له الأثر في إضعاف محاولات كريم خان في استعادة السيطرة الفارسية على سواحل الخليج العربي. وقد ظهر النزاع في بادئ الأمر بين كريم خان الزند والإمام أحمد في بعض الحوادث المحلية[٢٣]؛ ففي نهاية عام ١٧٦٩ طالب كريم خان الإمام أحمد بباخرة ضخمة»اشتراها الإمام من حاكم

هرمز –الشيخ عبدالله –باعتبار أن هذه الباخرة كانت للفرس، ولكن الإمام أحمد رفض ذلك[٢٤] قائلاً: إن تلك السفينة اشتُريت بطريقة شرعية من الشيخ عبدالله حاكم هرمز، ولا يمكن التخلي عنها أبداً.[٢٥]

كان من الطبيعي أن تتوتر الأوضاع بين الطرفيين بسبب هذا الرفض من الإمام أحمد، ولم يكن التوتر لهذا السبب ذاته في الحقيقة، وإنما لما قام به كريم خان الزند عام ١٧٦٩عندما أخذ يُطالب الإمام أحمد بإعادة عُمان إلى التبعية والهيمنة الفارسية استناداً إلى خضوعها لفارس في عهد نادر شاه بالغزوات الفارسية لها منذ أعوام ١٧٣٧– ١٧٤٤[٢٦]. وعندما لم يجد كريم خان استجابة من الإمام أخذ يُلحّ بإصرار على أن تدفع عُمان الإتاوة التي كانت تدفع سابقاً– التي انقطع الإمام عن دفعها[٢٧]– أيام نادر شاه، واتخذها كريم خان الزند حجة ودليلاً على خضوع عُمان للتبعية الفارسية.[٢٨]

جاء رد الإمام أحمد بن سعيد على ذلك المطلب الفارسي بالرفض المقرون بأسلوب رجال السياسة المتمرسين الذين يعرفون كيف يواجهون التطلعات الاستعمارية؛ فنجده يعلن بأسلوب ملؤه الإصرار والثقة بالنفس أن بلاده ترفض المطالب الفارسية جملةً وتفصيلاً، وضمن خطابه لهجة قوية ذكر فيها: أن الضرائب التي كانت تدفعها حكومة مسقط لفارس في عهد نادر شاه لم يكن الدافع إليها أحقية فارس في تلك الضرائب بقدر ماكانت سياسة انتهجتها لكي تتخلص من مشاكل نادر شاه[٢٩]. وقد ظهرت الشدة والقوة التي تحمل في طياتها روح التحدي في ذلك الخطاب حينما قال الإمام : إذا أصرّ كريم خان على مطلبه مستعملاً ذلك النوع من النقاش، فإنه سيلقى الجواب بالقذيفة والمدفع[٣٠]. ويعود جزء كبير من هذه القوة الظاهرة بوضوح كبير في ردّ الإمام أحمد وقبوله التحدي إن استمرت هذه الإدعاءات الفارسية – إلى القوة البحرية في الدرجة الأولى (الأسطول الحربي والتجاري) التي أصبح الإمام يمتلكها[٣١]، إضافة إلى حرصه على قطع أي محاولة للفرس لإثبات ادعاءاتهم بتبعية عُمان لهم، وهو ما حرص على العمل به مُنذُ أن أخذ على عاتقه مهمة تحرير الأراضي العُمانية من الاعتداءات الفارسية عليها.

الاشتباكات الحربية بين فارس وعُمان:

جاء الرد العُماني بمثابة تحدٍّ سافر وإهانة كبيرة لكريم خان، وكانت النتيجة الطبيعة لذلك وقوع اشتباكات بين الطرفين، وحدوث اعتداءات فارسية على السفن البحرية العُمانية، ومن ذلك ما ذكره الإزكوي عندما قال: «أراد أن يتعرض كريم خان رئيس العجم وخانهم، وأراد أن

يسير قومه على عُمان المحروسة، وأرسل بقدر ستة آلاف، وعبروا إلى الجزيرة، ووصلوا إلى بلد سعيد بن قضيب الهولي، وهي جزيرة لنجه[٣٢]، فعلم مولانا الإمام وأرسل أولاده وبني عمه سيد خلفان بن محمد الوكيل وخلفان ابن محمد الوالي الأكبر، ومن معهم من سادات البوسعيد، والتقوا بتلك الجزيرة، وحصروهم بها، وطلبوا الأمان بعد عجزهم عن مصادمتهم فاحتلوها وعبروهم بالأخشاب إلى برهم في أمان، ولم يغنموا منهم مالاً، ولا خيالاً ولا سلاحاً».[٣٣]وقد تُعتبر هذه أول الاحتكاكات البحرية التي نشبت بين الطرفين، وانتهت بعودة القوات الفارسية من حيث أتت دون تحقيق مبتغاها.

كان كريم خان حتى هذا الوقت مستمراً في رغبته في استعادة سلطة مماثلة لما كان لنادر شاه في عُمان، وإن أدرك عجزه الفعلي في ذلك مقارنة بإمكانيات إمام عُمان التي كانت تحدياً كبيراً له، وأخذ ينظر إليها بحسد كبير؛ ولذلك ظل مستمراً في معاداته للإمام أحمد، ولايضيع أي فرصة تلوح لمضايقته ومعارضة خططه وسياسته[٣٤]، ومن ذلك ما قامت به القوة البحرية الفارسية عام ١٧٦٩[٣٥] عندما تمكنت من الاستيلاء على سفينتين محملتين بالبن كانتا في طريقهما إلى البصرة من مسقط[٣٦]. ولهذا التصرف من كريم خان أغار الإمام أحمد بن سعيد عام ١٧٧٠ على رأس أسطوله المكون من عدة سفن كبيرة وعليها خمسة آلاف جندي – على ميناء بوشهر مطالباً بترضية كافية عن الخسائر التي نجمت عن استيلاء فارس على السفن العُمانية.[٣٧] ومما ينبغي لفت الانتباه إليه من مقدم الإمام أحمد إلى بوشهر واختياره لهذا الميناء الذي يعدّ مقراً وقاعدة للبحرية الفارسية، وقيامه بتلك «التظاهرة الاستعراضية لأسطوله» هو مدى قوته وإمكانيته القتالية في مواجهة أي اعتداء خارجي على ممتلكاته.

بدأت علامات عدم إمكانية كريم خان في مواجهة إمام عُمان بعد هذه الإغارة التي قام بها الإمام، ولاسيما أن كريم خان شغل بالمنازعات الداخلية، وترك تصريف الشؤون البحرية في الخليج العربي للشيخ ناصر آل مذكور حاكم بوشهر[٣٨]، الذي منحه بمقتضى «الفرمان» الذي أصدره عام ١٧٧٢ [٣٩]حرية التصرف المطلق في مواصلة الحرب مع عُمان أو عقد الصلح معها[٤٠]. وفتح باب التفاوض بين الإمام وناصر آل مذكور بعد ذلك إلا أن تلك المفاوضات لم تسفر عن نتيجة بل يمكن قول: كانت مفاوضات فاشلة؛ لأن ناصر آل مذكور أصرّ على أن تستمر عُمان في دفع الخراج المالي «الإتاوة» لفارس، ولكن الإمام أحمد رفض ذلك، بل رفض من حيث المبدأ أي حديث يتعلق بهذا الأمر. ومع أنه أعلن رغبته في أن تكون له علاقات الصداقة مع الفرس، إلا أنه أبى أن يشتري صداقتهم بالمال[٤١].

أمام هذا التجاهل الفارسي لرغبة الإمام في إقامة سلام بين القوتين العُمانية والفارسية، استمر

التوتر بينهما، ومن ذلك إصدار الإمام أحمد عام ١٧٧٣ أوامره لوالي مسقط خلفان بن محمد بإعداد حملة بحرية على ميناء لنجه التي فيها قوات فارسية بقيادة «مير علي»[٤٢]. وما يسترعي الانتباه في هذه الحملة انضمام شيخ القواسم «راشد بن مطر القاسمي»[٤٣]، وشيخ هرمز«الشيخ عبدالله من بني معين» إلى الإمام أحمد[٤٤]؛ وبذلك تزعم الإمام أحمد هذا الحلف العربي ضد كريم خان.

قبل الخوض فيما أسفر عنه هذا التحالف، لابد من الإشارة إلى أن الثلاثة اجتمعوا معاً ضد كريم خان رغم الخلافات بين الإمام وشيخ القواسم[٤٥]، وبين الشيخ عبدالله والقواسم[٤٦]. وهنا كتب سلوت قائلاً: «أدت مشاريع كريم خان في استعادة السيطرة على عُمان إلى تكوين تحالف بين بعض الأعداء السابقين: الإمام، والقواسم، والشيخ عبدالله شيخ هرمز؛ فقد كان لديهم جميعاً أسباب تجعلهم يخشون تفاقم السلطة الفارسية في منطقة جنوب الخليج»[٤٧]. وكان الإمام أحمد قد نجح في عقد تحالفه هذا مع القواسم عام ١٧٧٢، ثم توّج هذا التحالف بتنظيم هذه الحملة ضد الفرس، مستفيداً من ذلك التفوق البحري القاسمي في إضعاف شوكة فارس.[٤٨]

ولّما بدأت الحملة الثلاثية تشقّ طريقها إلى لنجه اصطدمت بسفنتين فارسيتين في بندر عباس فأحرقتهما ودمّرتهما،[٤٩] ثم واصلت سيرها إلى ميناء لنجه وحاصرته، وحطّمت عدة سفن فارسية ومستودعاً حربياً أنشأه الفرس فيه[٥٠]مسببة بذلك أضراراً للساحل الفارسي[٥١]. وكانت القوات الفارسية في لنجه بقيادة «مير علي» الذي تجنب الصدام مع تلك الحملة ومال إلى استرضائها خوفاً من الخسائر .[٥٢]

كان الرد الطبيعي لكريم خان على هذه الحملة هو العودة مرة أخرى إلى التفاوض مع الإمام، وكلف الشيخ ناصر آل مذكور حاكم بوشهر بهذه المهمة مرة ثانية. وهذا الردّ أو التصرف من كريم خان، ومن قائد القوات الفارسية في لنجة «مير علي» يعطينا مؤشراً على ضعف الموقف الفارسي من تلك الحملة العُمانية المشتركة، وضعف سيطرة فارس على أوضاع منطقة جنوب الخليج العربي أيضاً.

ولّما تقرر بدء المفاوضات رُتّب لعقد اجتماع بين الشيخ ناصر آل مذكور في خورفكان، وقائد الحملة العُمانية خلفان بن محمد والي مسقط، والشيخ عبدالله حاكم هرمز، وشيخ القواسم راشد بن مطر القاسمي على أساس وضع خطة لإعادة السلام إلى منطقة جنوب الخليج، ولكن هذا الاجتماع لم يحصل؛ فقد رفض الإمام أحمد بن سعيد أي حديث عن فكرة العودة إلى دفع الخراج المالي لفارس، التي أراد الجانب الفارسي أن تكون محوراً للنقاش[٥٣]؛ وبذلك

أخفقت تلك المفاوضات كسابقتها، وعادت العلاقات الفارسية العُمانية إلى سابق عهدها.

ومما يُلاحظ على هذه الاشتباكات الحربية البحرية بين عُمان ممثلة في الإمام أحمد بن سعيد وفارس ممثلة في كريم خان الزند أن الإمام تفوق على خصمه الفارسي، وهو أمر أكده لوريمر أيضاً حين أشار إلى ذلك بقوله: كانت نتيجتها على وجه العموم في مصلحة الإمام.[٥٤]

عُمان وفارس، واستمرار العداء:

أشرت إلى أهمية الدور الذي أدّته التحالفات العربية التي نجحت عُمان في عقدها مع كثير من القوى العربية في غربي الخليج العربي وشرقيه في إضعاف محاولات كريم خان الزند للسيطرة على عُمان وعلى مناطق الخليج العربي. وقد اتضحت أهمية هذه التحالفات فيما حدث في أواخر عام ١٧٧٣ عندما بدأ كريم خان يُعِدّ العدة للقيام بحملة على مسقط مستعيناً بحلفائه من الإنجليز والعثمانيين وبإمارة بني كعب العربية،[٥٥] فتجمع أسطول بحري فارسي بما فيه السفينة البريطانية المستولى عليها «تايجر».[٥٦] وكان التجمع للعمل ضد الإمام،[٥٧] وقد ضم هذا الأسطول أيضاً سفينة قديمة من بوشهر جهزت لهذه الحملة خاصة، إضافة إلى ثلاث سفن أخرى،[٥٨] ولكن هذه الحملة لم تصل إلى عُمان؛ إذ لم يتمكن كريم خان من الحصول على قوة مجتمعة كافية لفشله في إقناع طواقمها البحرية بالإبحار لمواجهة قوى الإمام، ولتباطؤ بني كعب عمداً في إرسال سفنهم[٥٩]؛ لأن شيخ بني كعب أحدث ثقوباً في بعض مراكبه بعد أن تلقى من كريم خان أوامر بتعزيز الأسطول للقيام بإجراء ضد إمام مسقط، وعرضها على تلك الحالة أمام رسل الوكيل، دليلاً على عجزه عن الطاعة[٦٠]. ويتضح من ذلك أن شيخ بني كعب والقبائل الأخرى التي دُعيت إلى الانضمام إلى هذه الحملة[٦١]، رفضوا الاشتراك فيها؛ لأنها موجهة ضد عُمان التي ترتبط معهم – ولاسيما بني كعب – بروابط كبيرة.[٦٢]

استمرت مضايقات كريم خان الزند للإمام أحمد بن سعيد لفرض النفوذ الفارسي وكسر تفوق الأسطول العُماني البحري الحربي والتجاري، الذي أثار حقد الفرس وضغينتهم على عُمان وإمامها. ومن ذلك ما حدث لأسطول القهوة العُماني الذي كان يقوم برحلتة المعتادة إلى البصرة، وتوقف في البحر لتجدد الاشتباكات بين الطرفيين العُماني والفارسي، التي أسفرت عن الاستيلاء على بعض سفنه وهي محملة بالقهوة[٦٣]، فأكد الإمام في هذه المرة أن الأسطول سيعتمد على قوته العسكرية لرد أي اعتداء عليه من الجانب الفارسي، أو أي عدو من الأعداء.[٦٤]

ولم يكتف إمام عُمان بذلك بل عمل على عدم إتاحة الفرصة لكريم خان الزند لتطوير بحريّته

وتوسيعها بالحصول على المساعدات الأوروبية. وكان يدرك عجز كريم خان الزند عن القيام بهذه المهمة دون أن يتلقف مساعدة أوروبية؛ فالقوة البحرية الفارسية إبان حكم كريم خان لم تكن ذات شأن قياساً بما كانت عليه أيام نادر شاه؛ لأنه لم يحاول إعادة تجربة نادر شاه في بناء أسطول فارسي في الخليج العربي، لكنه حاول الاستعانة ببعض الأساطيل المحلية الموجودة في الشاطئ الشرقي للخليج العربي، أو بسفن شركة الهند الشرقية الإنجليزية حين حاول أن يقوم بعملية بحرية.[٦٥] وتنفيذاً لما سعى إليه الإمام أحمد، بعث برسالة إلى السلطات البريطانية في بومباي، التي كانت على علاقة طيبة مع فارس، طالباً منها عدم السماح لفارس بشراء أو بناء سفن حربية في الهند؛ لأن كريم خان لا يتوانى عن خلق القلاقل في مياه الخليج العربي[٦٦]. وطلب من سلطات بومباي أيضاً الوقوف على الحياد في الصراع القائم بينه وبين فارس[٦٧]. و لم يكتف الإمام أحمد بن سعيد بذلك فقد أظهر في رسالته تهديداً واضحاً– استناداً إلى قوته وتفوقه البحري –للسلطات البريطانية بوقف طريق التجارة البريطانية في الخليج إن لم تنفذ مطالبه[٦٨].

البصرة...مابين الاحتلال الفارسي والنجدة العُمانية:

تردد كريم خان حتى هذه اللحظة من تاريخ جهوده للنيل من عُمان وقوتها في التورط في عمليات عسكرية مباشرة ضد عُمان على نطاق واسع؛ فقد أثبتت الأحداث التاريخية أيام نادر شاه خطر ذلك، ولكنه حاول إلحاق الدمار باقتصاد عُمان بدلاً من ذلك بوضع حدّ لقاعدتها الاقتصادية التجارية الأساسية في البصرة[٦٩]؛ فقد ورد في تقرير عام ١٧٥٦ يصف مسقط بأنها مركز تجاري كبير، مع أن سلطة الإمام أحمد بن سعيد عانت الاضطرابات العديدة في السنوات السابقة، وهو تقرير طويل نُشير إلى بعض ما ورد فيه :

«مسقط مدينة معروفة تماماً لدى الأوروبيين، تقع على مدخل الخليج، وموقعها جيد لتبادل البضائع. وكانت سفن الخليج المحلية تجلب التمور والقمح وعرق السوس...وغيرها من السلع غير المصنعة؛ إذ ينقل إليها على متن مراكب من الساحل المقابل ومن ملبار الأرز المطبوخ، والأرز النيء وجوز الهند...وتعتمد تجارة مسقط الرئيسية على تبادل هذه السلع ...وهم يبتاعون أيضاً بعض السلع الأخرى ويحملونها عبر الخليج إلى البصرة».[٧٠] والسؤال هو: كيف سيتمكن كريم خان الزند من ضرب هذا الاقتصاد التجاري الواسع؟

فارس وطلب المعونة العثمانية والبريطانية ضد عُمان:

في فبراير عام ١٧٧٤ كتب كريم خان الزند إلى هنري مور الوكيل البريطاني في

البصرة(١٧٦٧-١٧٧٥)[٧١] وسليمان آغا[٧٢] متصرف البصرة يطلب منهما مساعدة الأسطولين العثماني والبريطاني في الحرب التي يعزم شنها على إمام عُمان،[٧٣] الذي كان في حالة حرب معه، وهدّد بمهاجمة البصرة إن لم يذعن لمطلبه،[٧٤] ولكن العثمانيين والبريطانيين اعتذروا عن عدم إجابة هذا الطلب الفارسي.[٧٥] وجاء الرد البريطاني من الوكيل هنري مور بأنه هو وأبناء قومه مجرد تجار، وليس من حقهم أو واجبهم الدخول في أية حرب، وأنهم سيراعون الحياد التام، وكل ما يستطيع[٧٦] عمله هو أن يتوسط بين الخان والإمام بصفته صديقاً لكليهما.[٧٧] ويبدو أن الإنجليز كانوا غير راغبين في زج أنفسهم في حروب هم في غنى عنها، وقد تؤثر في مصالحهم التجارية في الخليج العربي.[٧٨]

أما الجانب العثماني وبالتحديد متصرف البصرة سليمان آغا فلم يكن راغباً في تقديم مساعدة للخان على إمام عُمان فحسب، بل كان ينظر بعين الرضى والاغتباط إلى قوة إمام عُمان ومقدرته في الوقوف أمام وجه الإيرانيين؛ فالإمام هو الرئيس العربي الوحيد الذي بقى مناوئاً للإيرانيين في الخليج. وكان بحوزته الأسطول القوي الذي يمكّنه من تحديهم وردّ عدوانهم[٧٩]. ورأى باشا بغداد أيضاً أن من مصلحته أن تبقى عُمان قوية ومستقلة وبعيدة عن نفوذ الإيرانيين؛ وذلك للمصالح التجارية المهمة التي تربط عُمان بالبصرة من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن استمرار عُمان كقوة بحرية مهمة في الخليج يحدّ من تعاظم نفوذ الإيرانيين في المنطقة، الذي يمثل تهديداً للبصرة نفسها، ولمصالح الباشا في الخليج العربي[٨٠]. ولهذه الأسباب وللمصالح المشتركة لجميع الأطراف في الخليج رُفض الطلب الفارسي.

التحرك الفارسي نحو البصرة وأسبابه:

أمام هذا الرفض العثماني والبريطاني ضد عُمان، قرر كريم خان غزو البصرة عام ١٧٧٥. وحشد لذلك جيشاً كبيراً بلغ عدد أفراده خمسين ألفاً بقيادة صادق خان- شقيق كريم خان-إضافة إلى قطعات بحرية من حوالي ثلاثين سفينة منها السفينة «تايجر» التي استولى الفرس عليها عام ١٧٧٣.[٨١]

ومما يستدعي ذكره في هذا المقام أن هذا التوجه في السياسة الفارسية نحو احتلال البصرة كان تحقيقاً لمشاريع فارس وأطماعها التوسعية في المنطقة[٨٢]؛ لذلك اتخذت من الرفض البريطاني والعثماني حجة لهذا الهجوم. وفي الواقع كان أكثر الدوافع أهمية لفارس ينحصر في قطع تجارة البصرة مع الهند؛ وإن كانت عُمان حاضرة بقوة في المشاريع التوسعية الفارسية؛ ولهذا كان من الممكن أن يؤدي احتلال بلاد فارس لعُمان إلى تدمير البصرة؛ ولذلك استمر الفرس

في محاولتهم لاحتلال عُمان.[٨٣]

وفي مقابل ذلك نجد العديد من المصادر وإن اختلفت في تحديد السبب الرئيسي في الهجوم الفارسي على البصرة، فهناك من يُشير – ومنهم لوريمر – إلى أن احتلال البصرة يساعد على إخضاع عُمان التي كانت أغلب تجارتها مع هذا الميناء؛ ولذا كان كريم خان ينوي الزحف براً إلى عُمان لاحتلالها بعد أن يستولي على البصرة[٨٤]. والتشجيع الذي قدمه الأتراك للعُمانيين ليمتنعوا عن دفع الفدية لفارس أحد الاعتبارات أيضاً، التي حملت كريم خان على إرسال قواته إلى البصرة[٨٥]. ويقترب مايلز إلى لوريمر في أن السبب يتصل تقريباً بالجانب التجاري؛ إذ يذكر أن كريم خان شعر بالغيرة لازدياد أهمية البصرة؛ إذ تحولت التجارة من بندر عباس ومن مؤانئ فارسية أخرى إلى ميناء البصرة.[٨٦]

كان بدء كريم خان الزند بالتقدم لاحتلال البصرة لا يخرج عن نطاق المشاريع الفارسية التوسعية كما قلنا، وإن أخفى[٨٧] ذلك بحجج واهية [٨٨] منها امتناع متصرف البصرة عن تقديم المساعدة ضد إمام عُمان في مقابل تقديم المساعدة للإمام أحمد بن سعيد ضدهم،[٨٩] ومنها المعاملة السيئة للولاة والحكام العثمانيين وعلى رأسهم عمر باشا والي بغداد للحجاج والزوار الإيرانيين، ومن ثَمّ طالب كريم خان الزند بإعدام عمر باشا[٩٠]. وبهذه الحجج وطريقة التفكير في ضرب اقتصاد عُمان بالهجوم على البصرة، أعاد كريم خان سياسة الصفويين ونادر شاه. [٩١]

صمود البصرة وطلب النجدة العُمانية:

وصلت القوات الفارسية بقيادة صادق خان إلى شط العرب في السادس عشر من مارس عام ١٧٧٥، وبدأت الزحف نحو البصرة، ومع أن القوة العسكرية للبصرة[٩٢] كانت قابلة للانهيار والاستسلام للقوات الغازية إذا ما قورنت بالقوة العسكرية الفارسية، إلا أن هذا لم يحدث؛ وذلك بفضل المواجهة التي لقيتها القوات الفارسية منذ وصولها من متصرف البصرة سليمان آغا ومن قبيلة المنتفق بشيوخها ورجالها[٩٣] الذين أبدوا مقاومة أكثر مما توقعته القوات الفارسية؛ ومن ذلك ما ذكره السائح الإنجليزي بارسونز[٩٤]: « لم يكن متصرف البصرة شجاعاً جداً حسب بل كان فعالاً ومنفذاً؛ فقد كان طول يومه ممتطياً صهوة جواده وعاملاً على الاستعداد للطوارئ»[٩٥]. أما قبائل المنتفق فقد تصدت للقوات الفارسية مُنذُ دخولها منطقة شط العرب، واتخذت بقيادة الشيخ ثامر بن سعدون مكاناً لها على الجانب الغربي من شط العرب لمنع القوات الفارسية من العبور والتقدم نحو البصرة.[٩٦]

بدأ الوضع في البصرة يسوء ولاسيما بعد أن أطبقت القوات المحاصرة عليها من البر والبحر، إضافة إلى عدم وصول تعزيزات من بغداد رغم الوعود المتكررة، فشحّت المواد الغذائية والذخيرة لدى المدافعين، وازدادت الصعوبات أمامهم[٩٧]، عندئذ تقدمت البصرة بطلب المساعدة والنجدة من إمام عُمان أحمد بن سعيد للمشاركة بأسطوله للدفاع عن المدينة. وتقديم هذا الطلب لإمام عُمان بالتحديد يعطينا إشارة ودليلاً قوياً على مدى القوة البحرية التي كانت عُمان تمتلكها آنذاك.

وتختلف المصادر في تحديد الجهة التي بادرت إلى تقديم طلب المساعدة؛ فالأزكوي يقول: إن أهل البصرة هم الذين تقدموا بالطلب؛ إذ أرسلوا إلى الإمام يريدون منه النصرة.[٩٨] ويذكر مايلز أن والي بغداد أرسل رسالة سريعة يناشد إمام عُمان أن يبعث بأسطول قوي لمواجهة الفرس والدفاع عن البصرة،[٩٩] على حين يذكر لونكريك أن متصرف البصرة سليمان آغا هو من تقدم بالطلب. وبعد أربعة أشهر[١٠٠] حصل اتفاق بين المتصرف وإمام عُمان[١٠١]، ولكن يبدوا أن أهالي البصرة – ولاسيما شيوخ قبيلة المنتفق ومتصرف البصرة – هم من بادروا إلى طلب المساعدة والنجدة من الإمام؛ وذلك لعدم وصول إمداد من السلطان العثماني ووالي بغداد، إضافة إلى ما ذكره الأزكوي حين قال: إن ثامر بن سعدون شيخ المنتفق ورئيسهم وكبيرهم كان يقول للشيخ ماجد بن سعيد: «ياخوي ماجد نحن سقماء وأنتم حكماء داوونا والمعافي الله».[١٠٢]

وأياً كانت الجهة التي تقدمت بالطلب فإن الإمام أحمد بادر إلى تلبيته لعدة أسباب منها إدراكه للأهداف التوسعية الفارسية في المنطقة عامة والبصرة وعُمان خاصة؛ ولذلك فإن نجاح الهدف الفارسي في البصرة لن يكون في مصلحته، إدراكاً منه أنه الهدف التالي للمخطط الفارسي، إضافة إلى ذلك أن احتلال أي منهما سيلحق الضرر بالطرف الآخر. وأراد الإمام أيضاً – كما يقول لونكريك – أن يرد الجميل للأتراك لما بدر من أثناء محاولة الفرس غزو مسقط؛ إذ طلب كريم خان قبل سنة معاونة الأتراك له على الإمام أحمد، فلم يمنوه بما أراد. ولأجل أن يظهر إمام عُمان شكره على ذلك سارع إلى مساعدتهم ووعد بدفع الجراية لهم.[١٠٣] وإضافة إلى رد الجميل أراد الإمام أحمد أن يكون له حليف قوي يعتمد عليه في مواجهة التهديدات الفارسية؛ ولذلك بدأ يتقرب إلى الدولة العثمانية.[١٠٤] وفي الوقت نفسه كان رغبته توجيه ضربة للعدو المشترك الذي كان في حرب معه.[١٠٥]

وصول النجدة العُمانية وأثرها في البصرة:

ما إن وصلت استغاثة البصرة إلى عُمان حتى بدأ تنفيذها بإرسال أسطول كبير تحرك إلى

البصرة في شهر أغسطس عام ١٧٧٥ [١٠٦] «فأمسكت سفنه الأجيرة عنان الشط وضبطته طول صيف ١١٨٩/١٧٧٥هـ».[١٠٧] وكان الأسطول العُماني المرسل مكوناً من ثمانين قطعة بحرية[١٠٨] بما فيها سفينة القيادة المعروفة باسم «الرحماني» – أكبر القطع البحرية في الأسطول– إضافة إلى قوة مؤلفة من عشرة آلاف رجل.[١٠٩] وقد أُوكلت قيادة هذا الأسطول على ماجد بن سعيد بن قاسم الحارثي.[١١٠]

كان السائح الإنجليزي بارسونز الذي توجه إلى مسقط ووصلها في أغسطس ١٧٧٥– قد ذكر أنه وجد أسطول الإمام راسياً في مطرح على أهبة الاستعداد لمواكبة أسطول تجاري ضخم محمل بالمؤن إلى البصرة التي كان الفرس يحاصرونها آنذاك. وكانت قوة الأسطول الضاربة تشتمل على ٣٤ سفينة،أربع منها بُنيت في بومباي، وكل منها مزوّدة بـ ٤٤ مدفعاً، و٥ فرقاطات كل منها مزودة بـ ١٨–٢٤ مدفعاً. والباقي مراكب صغيرة في كل منها ٨ –١٤ مدفعاً.[١١١]

وصل الأسطول العُماني إلى بوشهر في الحادي عشر من سبتمبر عام ١٧٧٥، ورسا في شط العرب بعد أن ضمن الأمن في النهر؛ وذلك بعد أن شتت «عمارة» بحرية فارسية بقيادة الشيخ ناصر آل مذكور شيخ بوشهر[١١٢]. وقد كان ظهور الأسطول العُماني في ظل سوء أوضاع المحاصرين بارقة أمل لأهل البصرة[١١٣]. وكان الأسطول العُماني عند وصوله إلى شط العرب قد وجد سلسلة حديدية على النهر لعرقلة التقدم نحو البصرة، «فلما وصلوا جهة البصرة وجدوا العجمي قد صنع سلسلة من حديد أعظم ما يكون وركبها من البر في البحر إلى البر قاطعة على أهل عُمان»[١١٤] «ولم يجدوا سبيلاً لدخول البصرة فأقاموا هنالك إلى أن أعانهم الله برحمته»[١١٥]. وهناك من يعتقد أن الأسطول العُماني لو هاجم الفرس حين وصوله إلى شط العرب لتمكن من دحرهم وهزيمتهم ولاسيما أن وصوله كان غير متوقع، ولكنه بقي مدة في مصب شط العرب في انتظار انضمام قطعات بحرية أخرى إليه؛ مما أعطى الفرصة للفرس للاستعداد لمواجهته.[١١٦]

وفي أكتوبر عام ١٧٧٥ الموافق شعبان عام ١١٨٩هـ تمكن الأسطول العُماني من اختراق السلسلة الحديدية وتدميرها إضافة إلى تدمير العديد من السفن الفارسية، ودخول البصرة التي لم يكن باستطاعة قوات صادق خان أن تحول دون إنزال المؤن والرجال لكي ينضموا إلى البصريين من أجل شن هجوم كبير على القوات الفارسية، الذي بدأ بالفعل في اليوم التالي لدخول البصرة، حيث وقعت معركة هائلة ألحقت خسائر جسيمة بالقوات الفارسية. وبذلك

فك الحصار عن البصرة، ومنعت القوات الفارسية من القيام بهجوم معاكس.[١١٧]

مما لاشك فيه أن وصول الأسطول العُماني وفك الحصار الفارسي قد أسهما جداً في إمداد البصرة بالتجهيزات؛[١١٨] إذ تمكن المدافعون من الحصول على كميات من المؤمن والذخيرة مكنتهم من مواصلة الحرب على الفرس فترة طويلة.[١١٩] وترتب على عجز القوات الفارسية وفشلها في التصدي للمقاومة العربية في ظل الوجود البحري العُماني الذي أضر بالمجهود الحربي الفارسي – إصدار قائد القوات الفارسية صادق خان قراراً بمكافأة أي جندي فارسي بأسر جندياً عُمانياً بمبلغ خمسة تومانات، ومبلغ ٣ تومانات عن إصابة سفينة عُمانية.[١٢٠] وكان هدف القائد الفارسي من ذلك شحذ همم مقاتليه وبثّ روح التنافس بينهم لمواصلة القتال والحرب ضد الجانب العُماني.

انسحاب الأسطول العُماني، وسقوط البصرة عام ١٧٧٦:

تمكنت البصرة من الصمود سنة كاملة (إبريل ١٧٧٥-إبريل ١٧٧٦) وقد اجتمعت عدة عوامل في هذا الصمود منها: بسالة وشجاعة متصرف البصرة سليمان آغا، ودفاع أهل البصرة ولاسيما قبيلة المنتفق بشيوخها ورجال والقبائل الأخرى، والدور الكبير الذي قام به الأسطول العُماني ومرابطته في شمال الخليج والبصرة، الذي كان وجوده حجر عثرة أمام تقدم القوات الفارسية.

قرر الأسطول العُماني الانسحاب والعودة إلى مسقط في نهاية شهر فبراير عام ١٧٧٦؛ ففي المدة التي كان فيها الأسطول العُماني موجوداً للدفاع عن البصرة بعث متصرف البصرة إلى السلطات العثمانية ووالي بغداد يطلب منهم تقديم الإمدادات اللازمة لنصرة البصرة بسبب النقص المتزايد للمؤن والإمدادات، ولكنه لم يتسلّم أي إمدادات. وقد أثر هذا في وضع القوة العُمانية؛ إذ أخذ مخزون عتادها يتناقص يوماً بعد يوم ولاسيما في ظل بُعْد الأسطول عن قواعده، علاوة على أن وضعها المعيشي أخذ يتدهور[١٢١].وقد وصف الأزكوي جانباً من تلك المعاناة قائلاً: «وطال قيامهم بالبصرة و لم يصل إليهم أحد من المدد من جانب عبدالحميد خان ولا من عند باشا بغداد، وقل الزاد عليهم والمعاش، وطالت عليهم المدة فرجعوا عنهم على حال جميل»[١٢٢]. وفي مقابل نقص إمدادات البصرة والقوات العُمانية كانت القوات الفارسية تتلقى من شيراز الإمداد بالمؤن والرجال؛ ما كان له الأثر في ازدياد القوة الفارسية.[١٢٣]

لم يكن نقص الإمدادات عن الأسطول العُماني السبب الوحيد الذي دفعه إلى مغادرة البصرة؛

فقد كان الإمام يخشى أن تتعرض عُمان لهجوم من كريم خان مستغلاً انشغال الأسطول العُماني بمساعدة البصرة،[١٢٤] إضافة إلى أن عُمان شهدت في هذه الفترة اضطرابات داخلية بتمرد ابني الإمام أحمد: سيف، وسلطان[١٢٥]، وتجدد الخلافات بين القواسم وإمام عُمان عام ١٧٧٥ .[١٢٦]

وقبل أن يغادر الأسطول إلى عُمان ساعد متصرف البصرة سليمان آغا على بناء استحكامات دفاعية للمدينة، إضافة إلى المساعدة على كسر سدود الماء وإحاطة البصرة بالماء، والمساعدة على تدريب رجال العشائر من بني خالد والمنتفق.[١٢٧]

كان الإمام أحمد بن سعيد حريصاً على إنقاذ البصرة من الاحتلال الفارسي؛ ولذلك حاول أن يبدأ بالتفاوض مع كريم خان الزند. ويُشير مايلز إلى ذلك بقوله: «ثم حاول الإمام أن يتوسط للصلح بين القوتين، وفكر بجدية في إرسال ابنه سعيد إلى كريم خان ليضمن السلام للأتراك وله أيضاً، و لم ينفذ ذلك، وعاد بأسطوله إلى مسقط».[١٢٨]

كانت السلطات العثمانية قد قدرت الدور الذي قامت به عُمان في الدفاع عن البصرة؛ فقد أشاد السلطان العثماني عبدالحميد الأول (١٧٧٣–١٧٨٩) بهذه المعاونة التي قدمها العُمانيون، وأصدر «فرماناً» بدفع مساعدة مالية سنوية لإمام عُمان من خزانة البصرة، ومنح التجار العُمانيين حرية التجارة في العراق، ورفع الرسوم التي كانت تفرض على البُنّ العُماني،[١٢٩] واستمرت هذه المساعدة حتى بداية عهد سعيد بن سلطان (١٧٨٣– ١٨٢١). [١٣٠] وقد أشار ابن رزيق إلى تلك الأموال التي كانت تدفع لعُمان، فقال: «فأمر السلطان على واليه الذي بالبصرة أن يدفع إلى الإمام الخراج الذي تقرر إلى أيام دولة السيد سلطان بن الإمام أحمد، وإلى أيام دولة ولده سعيد بن سلطان بن الإمام».[١٣١]

وبخروج الأسطول العُماني من البصرة في فبراير عام ١٧٧٦ حدث اختلال في ميزان القوى بين المُحاصِرين والمُحاصَرون، وساءت أوضاع البصرة كثيرا؛[١٣٢] فانتهز صادق خان هذه الفرصة وبقي مرابطاً ينتظر الاستسلام بكل صبر[١٣٣]،إلى أن تم له ذلك؛ إذ يئس الجميع من وصول إغاثة من بغداد؛ [١٣٤] فاستسلمت البصرة في ١٥ إبريل عام ١٧٧٦ ،[١٣٥] واحتلتها قوات صادق خان في اليوم التالي، وتمكن صادق خان من دخولها في ٢١ إبريل من العام نفسه[١٣٦]. وبذلك تم احتلال البصرة التي بقيت محتلة ثلاث سنوات (١٧٧٦–١٧٧٩). وكان الاحتلال خلالها باهظ التكلفة وشيئاً غير مشرّف للوصي، ومهيناً للأتراك إن لم يكن مهدداً لهم، ومشؤوماً على سكان البصرة.[١٣٧]

ما إن تلقى كريم خان الزند أنباء إخضاع البصرة، حتى أصدر أوامره لأحد قواده بأن يجري فحصاً للوضع في البلد، من البصرة باتجاه مسقط، ويرسل إليه تقريراً عنه[١٣٨]. وكتب لوريمر تعليقاً على هذا التصرف الذي بدر من كريم خان بالقول التالي:«ويبدو من هذه التعليمات أن الوكيل[١٣٩] لم يكن ينوي أن يحوّل ملكيته الجديدة إلى فائدة مالية قصوى فحسب، بل أن يجعلها نقطة انطلاق له إلى فتوحات إضافية»[١٤٠]. وهذا يُثبت ما أشير إليه في بداية الحديث عن توجه كريم خان الزند نحو البصرة. وكتب أحد الباحثين في ذلك قائلاً: «وهكذا فإن تعليمات كريم خان الأخيرة تعكس أطماع الفرس في الخليج العربي، وتبدد ادعاءاته ومبرراته لغزو البصرة». [١٤١]

لم يُنفذ هذا المخطط الفارسي للزحف على عُمان؛ ففي عام ١٧٧٩ توفي كريم خان الزند، واضطر صادق خان إلى الانسحاب من البصرة[١٤٢] بسبب الاضطرابات التي عمّت فارس نتيجة الحرب الأهلية بين الزنديين والقاجاريين؛ ما جعل فارس تتراجع عن الصدارة والقوة بين بلدان الخليج، و لم تعد الدولة المسيطرة في الخليج، وأصبحت من أكثر البلدان ضعفاً وأسوئها نظاماً؛ فخلال ثمانية عشر عاماً من وفاة كريم خان تولى الحكم سبعة من أفراد أسرته، و لم يكن لهؤلاء نفوذ خارج بلادهم؛ وبذلك انشغلوا عن الاهتمام بعُمان أو بالجزر والموانئ التي تقع على الساحل الفارسي من الخليج العربي؛ ما يعني انحسار الأطماع الفارسية عن المنطقة، وبدء عُمان بأداء دور بارز في تاريخ منطقة الخليج العربي في أواخر القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر.[١٤٣]

يمكن قول: إن العلاقات الفارسية العُمانية في تلك المرحلة التي تلت وفاة كريم اتسمت بالهدوء إلى نهاية حكم الإمام أحمد بن سعيد عام ١٧٨٣ الذي انشغل هو أيضاً بمعالجة الاضطرابات الداخلية التي ظهرت في عُمان، وتمثلت بتنافس أبنائه على الحكم، وكانت في الوقت نفسه سبباً في التدخل القاسمي في الشأن العُماني.

الخاتمة:

نستطيع أن نخرج في هذه الفترة التاريخية التي شملتها هذه الدراسة بحقيقة لا مجال للشك فيها وهي استمرار العداء الفارسي لمنطقة الخليج العربي عامة وعُمان خاصة، وبذلك اصطبغت العلاقات الفارسية العُمانية بصبغة العداء المستمر؛ ذلك العداء الذي دفع بفارس «إيران» في مرحلة من مراحل تاريخها – بغض النظر عن أسباب ذلك العداء– إلى ألّا يكون دورها في منطقة الخليج العربي محصوراً في إقامة تحالفات – وإن استمر هذا النهج – مع القوى الأوروبية الأخرى تحقيقاً لمطامعها ومشاريعها التوسعية في المنطقة؛ ولذلك ظهر الأسطول الفارسي إلى حيز الوجود في النصف الأول من القرن الثامن عشر– وإن تأخر كثيراً مقارنة بما له من أهمية لفارس– ليعزز الدور الفارسي ووجوده في المنطقة.

لقد كانت البصرة والبحرين ثم عُمان هدفاً للأسطول الفارسي، وكان دخول هذا الأسطول إلى عُمان – في ظل وضع داخلي متشرذم وصراع على السلطة– بداية لتورط فارسي دام حتى عام ١٧٤٤، ولم يحقق لفارس إلا نجاحاً محدوداً ومؤقتاً؛ فعلى الجانب العُماني قُدر لعُمان أن تستعيد وحدتها وتماسكها بسياسة ودبلوماسية قائد التحرير العُماني من الاحتلال الفارسي أحمد بن سعيد البوسعيدي، أما الجانب الفارسي فقد قُدر له أن تعمّ أراضيه الحروب والثورات والفتن لتشلّ الأوضاع الفارسية الداخلية والخارجية، التي ازدادت سوءاً باغتيال نادر شاه عام ١٧٤٧، وكانت نتيجة لتلك الأوضاع المتردية في فارس.

هنا نستطيع أن تقول: إن كفة التوازن انقلبت عما كانت عليه، حين تمكنت فارس وهي في حالة من القوة والنشاط من دخول عُمان وهي في حالة ضعف وانكسار ليصبح الوضع: مجتمع عُماني أكثر تماسكاً عما قبل وواعياً لأخطار التدخل الخارجي، وقيادة حريصة على الحفاظ على الكيان العُماني بإصرار وقوة، على حين غدت فارس تعاني تمزقاً داخلياً وانهياراً في قوتها البحرية التي كانت حلم نادر شاه، ولكن حالة الضعف الفارسي التي استمرت نحو عشر سنوات تُوّجت عام ١٧٥٧ باعتلاء كريم خان الزند العرش الفارسي باسم «الوكيل» وباعتلائه واصل النهج العدواني الفارسي نحو المنطقة، معيداً بذلك الخط التوسعي الثابت الذي رسمته الحكومات الفارسية التي سبقته، وإن اختلف في الأدوات والمبررات والشعارات، ولكن هذا النهج والسياسة التي اختطهما كريم خان الزند اصطدمتا بسياسة القائد العُماني الذي رفض الخضوع والخنوع للمطالب والادعاءات الفارسية بكل قوة وصلابة، وهي صفات جعلت من الطرف الفارسي حريصاً على إخضاعها له.

وقد شهدت هذه المرحلة من العلاقات الفارسية العُمانية تطوراً في سيرها؛ إذ إن أحداثها لم تكن على الأراضي العُمانية كسابقتها، وإنما انتقلت الحروب والمنازعات خارج الأراضي العُمانية بفعل القوة البحرية التي أصبحت عُمان تمتلكها؛ وبذلك شهدت تلك المرحلة فعلاً وردة فعل مباشرة للسلوك الذي انتهجه الطرف الآخر، وأظهر فيها الطرف العُماني تفوقاً واضحاً على الطرف الفارسي، ظهر في النهج الذي سلكه الإمام في تعامله مع خصمه الفارسي الذي أظهر ادعاءات ومبررات تؤكد تلك الروح التوسعية الفارسية في السيطرة على المنطقة، وتمثلت بالمطالبة بإعادة عُمان إلى التبعية الفارسية، والمطالبة بدفع الخراج المالي السنوي، ثم تطور الأمر لإصرار الطرف العُماني على رفض تلك الادعاءات – التي أظهرت قوته وإمكانية المواجهة المباشرة مع الطرف الفارسي– إلى حدوث اشتباكات بحرية بين الطرفين تميزت بضعف الجانب الفارسي وقوة الجانب العُماني الذي تمكن من الوصول إلى المواقع الفارسية الحساسة، ومنها بندر عباس وبوشهر قاعدة الأسطول الفارسي، وفرض الحصار عليه، بل وتهديد القوى الأوروبية إن قدمت المساعدة لفارس، وهو ما حدث مع شركة الهند الشرقية الإنجليزية.

و لم يقتصر الأمر على ملاحقة الفرس في أراضيهم؛ وإنما أظهرت تلك الادعاءات الفارسية ومحاولاتهم المستمرة في التعرض للقوة العُمانية ولاسيما الأسطول التجاري العُماني – وقوف القبائل العربية – مع مما يفرقها من خلافات – في وجه المطامع الفارسية. وقد تمثل ذلك بالحلف العربي بين القواسم وبني معين للوقوف إلى جانب عُمان في صراعها مع فارس، وتوّج ذلك بالهجوم على القوات الفارسية في لنجه عام ١٧٧٣. وقد كشف الهجوم العُماني عن ضعف الرد الفارسي الذي ظهر في اقتراح عقد مفاوضات بين طرفين أوكلت قيادتها من الجانب الفارسي على حاكم بوشهر والبحرين، وكانت نتيجتها الفشل أمام إصرار الإمام العُماني على عدم قبول شروط التفاوض على أساس دفع الخراج المالي لفارس.

وإضافة إلى هذا الحلف العربي الذي أثبت ذاك النهج الثابت للقيادات السياسية العربية في القرون الماضية – ولاسيما عند تعرض إحدى المدن العربية للتهديد أو الغزو والاحتلال – المسارعة إلى النجدة وتلبية طلب المساعدة والنصرة ضد الغزاة، وهذا ما حدث بالفعل عندما تعرضت البصرة للهجوم الفارسي عام ١٧٧٥؛ فقد هبت عُمان لنصرتها ومساعدتها على العدو المشترك الذي تذرع بغزو البصرة بسبب الرفض العثماني المساعدة والمشاركة في الحملة المعدّة لضرب عُمان.

وفي ضوء هذه الدراسة نستطيع أن نؤكد بشكل عام فشل السياسة الفارسية في تحقيق مطامعها في عُمان ولاسيما في عهد كريم خان الزند الذي فشل في إعادة ما نجح نادر شاه من تحقيقه في عُمان في تلك الفترة التي امتدت من (١٧٣٧–١٧٤٤) ولكن الفشل الفارسي لم يقف أمام الطموحات والأحلام الفارسية في المنطقة، التي ظهرت – كما مر آنفاً – في محاولات كريم الزند إخضاع عُمان.

قد تكون هذه المرحلة من مراحل العلاقات الفارسية العُمانية قد انتهت بالفعل بانتهاء الفترة التي نحن بصددها، ولكنها وإن توقفت في هذه الدراسة عند هذه النقطة التي انتهت بوفاة الإمام أحمد بن سعيد عام ١٧٨٣ وكريم خان الزند عام ١٧٧٩ إلا أنها استمرت في سياستها التقليدية نحو عُمان والخليج العربي في الحقب التاريخية التالية وإلى يومنا هذا.

الهوامش

(١) قاسم،دولة البوسعيد في عُمان وشرق أفريقيا ،ص٦٤.

(٢) سبقت الإشارة إلى أن من أهم الثورات التي قامت ضد نادر شاه ثورة تقي خان عام ١٧٤٣ التي كلفت نادر شاه الكثير من أجل قمعها،هذا إلى جانب دخوله في حروب مع الدولة العثمانية.

(٣) عبد الأمير محمد أمين، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر، بغداد، مطبعة سعد، ١٩٦٦، ص٢٠–٢١.

(٤) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،العلاقات العربية الإيرانية ،معهد البحوث والدراسات العربية ،القاهرة،١٩٩٣،ص٥٨.

(٥) تجدر الإشارة إلى أن أول من خلف نادر شاه عقب اغتياله هو علي قولي خان (ابن أخي نادر شاه، والمتآمر على اغتيال نادر شاه)،وقد سمَّى نفسه(عادل شاه) واستمر حكمة مدة عام واحد فقط (١٧٤٧–١٧٤٨) واغتاله بعد ذلك أخوه إبراهيم. وكان من ضمن مخطط عادل شاه بعد استلامه للسلطة استئناف الحرب في عُمان، ولكن خططه لم تنفذ بسبب الانقلاب الذي قام ضده وانتهى بمقتله. لوريمر، القسم التاريخي،مج١، ص٨٩–٩٠. ج.ب.سلوت، عرب الخليج في ضوء مصادر شركة الهند الشرقية الهولندية ١٦٠٢–١٧٨٤،ترجمة: عايدة خوري، مراجعة: محمد مرسي عبدالله، ط١، أبوظبي، المجمع الثقافي، ١٩٩٣،ص ٣٢٥. حسين كريم الجاف،موسوعة تاريخ إيران السياسي من بداية الدولة الصفوية إلى نهاية الدولة القاجارية، ط١، مج٣، بيروت،الدار العربية للموسوعات،٢٠٠٨،ص ١١٨.

(٦) علاء الدين نورس، السياسة الإيرانية في الخليج العربي إبان عهد كريم خان ١٧٥٧–١٧٧٩، بغداد، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٨٢،ص١٦. سير آرنولد ت. ويلسون، تقديم آي. إس أميري، ترجمة: محمد أمين عبد الله،ط٢، مسقط،وزارة التراث القومي والثقافة،١٩٨٥،ص١٤٨.

(٧) نورس،المرجع السابق،ص١٧.

(٨) ولد كريم خان في قرية يري «اليرية» عام ١٧٠١ وهي من منطقة ملاير،وينتسب إلى قبيلة «لك» الكردية إحدى أفخاذ قبائل «اللر» المعروفة. عمل كريم خان منذ عام ١٧٢٧ جندياً في جيش نادر شاه، وذاع صيته عندما أظهر شجاعة فائقة في غزوة نادر شاه للهند. وبعد مقتل نادر شاه تقلد عدة مناصب عسكرية أيام حكم عادل شاه، ولكن وقع خلاف بينهما فترك كريم صفوف جيش عادل شاه، وتوجه إلى موطنه الأصلي «ملاير»، واتخذ من قلعة «يري» مقراً لقيادته خوفاً من حملات عادل شاه، ثم التحق هو وأخوه صادق خان بقوات إبراهيم خان الذي ثار على شقيق عادل شاه . وقد تلقب كريم بعد ذلك بلقب خان وذاع صيته. ودخلت فارس بعد ذلك فترة من الاضطرابات، وأعلن حاكم كل إقليم سلطته عليها إلى أن تمكن كريم خان وعلي مردان من دخول أصفهان وانتخاب مرتضى حفيد شاه سلطان حسين شاهاً على إيران باسم الشاه إسماعيل الثالث.ثم حدث خلاف بين كريم خان وعلي مردان، ولاسيما أن كريم خان كان على عكس علي مردان شخصية على خلق رفيع وحظي بتقدير أهالي أصفهان. وقد تمكن كريم خان من التخلص من علي مردان، وقرر بسط نفوذه على الأراضي الإيرانية، وكي يتسنى له ذلك كان لابد من التخلص من منافسيْه: آزاد خان الأفغاني، ومحمد حسين خان القاجاري اللذين انقلبا من العدو العنيد إلى الصديق الحميم وإن ظل محمد خان حانقاً على الأسرة الزندية، وبذلك تمكن من حكم إيران. ومع أنه كان شاهاً لإيران إلا أنه أطلق على نفسه لقب «وكيل» أي وكيل الشاه إسماعيل الثالث. واتخذ من شيراز عاصمة له، وبنى فيها القصور الفخمة والمنتزهات العامة، وعني برفاهية الشعب، وشاعت في عهده روح المحبة والإخاء، والتسامح والعدل بين الأهالي. وتوفي بمرض السل عام ١٧٧٩.انظر:الجاف،المرجع السابق،ص١٣٥–١٤٤.

(٩) ويلسون،المرجع السابق،ص١٤٨. نورس،المرجع السابق،ص١٨.

(١٠) قاسم،دولة البوسعيد في عُمان وشرق أفريقيا،ص٦٥

(١١) المرجع نفسه.

(١٢) روبرت جيران لاندن، عُمان منذ ١٨٥٦ مسيراً ومصيراً، ترجمة محمد أمين عبدالله، سلطنة عُمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٣،ص٧١.

(١٣) قاسم،دولة البوسعيد في عُمان وشرق أفريقيا،ص٦٥. نورس،المرجع السابق،ص٥٥.

(١٤) دونالد هولي، عُمان ونهضتها الحديثة، ترجمة فؤاد حداد وعادل صلاحي، تحرير وتحقيق محمد بيبي، لندن، مؤسسة ستايسي الدولية، ١٩٨٠،ص٤٣.

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) قاسم،الادعاءات الإيرانية في الخليج العربي،ص١٧٤–١٧٥.

(١٧) سلوت، المرجع السابق،ص ٣٢٤–٣٢٥.

(١٨) قبيلة عربية تقطن في الساحل الفارسي. لوريمر، القسم التاريخي،مج ٢،ص١٤٨.

(١٩) هي كبرى جزائر الخليج العربي طولها ٦٨ ميلاً، وعرضها عشرة أميال تقريباً، ويطلق عليها العرب اسم الجزيرة الطويلة، وتمتد من لنجه إلى بندر عباس، وفي الشمال الشرقي منها هرمز. وتنطق: قشم، وجشم، وجسم. لوريمر، القسم الجغرافي،مج ٦، ص١٧٣.

(٢٠) تعتبر جزيرة هرمز المدخل الهام الذي يفصل بين خليج عُمان والخليج العربي،تقع على بعد ١١ ميلاً عن بندر عباس وعلى بعد ٤ أميال جنوب ميناب. وهي جزيرة دائرية الشكل طول قطرها بين أربعة أميال ونصف وخمسة أميال.وتتمتع بمركز تجاري هام بين الشرق والغرب. .لوريمر، القسم الجغرافي، مج ٣،ص١٩٧–١٩٨.

(٢١) بسبب غياب السلطة المركزية في فارس كان المتنافسون المحليون في القوة يتحاربون للسيطرة على بندر عباس وجزيرة جسم «قشم» وجزيرة هرمز وما تبقى من قوة الشاه البحرية. ونتيجة لذلك دخلت هذه القوى المحلية مع أحد المتنافسين على العرش الفارسي وذلك بما يخدم مصالحهم. وكان أقطاب هذا الصراع ملا علي وكان قائداً للأسطول الفارسي،وناصر خان شيخ أو حاكم منطقة «لار» إضافة إلى زعيم قبيلة معين. وفي ظل هذا الصراع تشكل حلف انقسم إلى قسمين: الأول ضم القواسم الذي انضموا إلى ملا علي حاكم بندر عباس الذي زوج إحدى بناته عام ١٧٥١ شيخ القواسم رحمة بن مطر القاسمي، وضم الحلف الثاني: قبيلة بني معين القاطنة في جزيرة قشم التي انضمت إلى ناصر خان حاكم لار.سلوت، المرجع السابق،ص٣٢٥. لوريمر، القسم التاريخي، مج١، ص١٠١،١٤٣. مصطفى عقيل الخطيب،التنافس الدولي في الخليج العربي، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٨١،ص٢٨٨.

(٢٢) نشأت علاقات وطيدة بين عُمان وإمارة بني كعب التي أصبحت منذ منتصف القرن الثامن عشر قوة يعتدّ بها في شرق شط العرب وغربه. للتفاصيل انظر: هامش (٦٢) من هذا البحث.

(٢٣) قاسم، الادعاءات الإيرانية في الخليج العربي، ص١٦٧.

(٢٤) س. ب.مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبدالله، سلطنة عُمان، وزارة التراث القومي والثقافة،١٩٨٢. ص٢٢٦. لوريمر، القسم التاريخي، مج ٢، ص١٤٨.

(٢٥) لوريمر، القسم التاريخي، مج ٢،ص١٤٨.كانت هذه السفينة التي طالب كريم خان بها الإمام تُدعى «فائز رباني» أو«الفتح رباني». وكان الشيخ عبدالله قد حصل عليها عام ١٧٦٠،وذلك عندما ثار أهل هرمز على «ملا علي» وتمكنوا من الاستيلاء على القلعة وأسروا «ملا علي»، وكانت هذه السفنية وسفينة أخرى تسمى «رحماني» كل ما تبقى من الأسطول الإيراني. ولّما علم القواسم ماحدث لحليفهم «ملا علي» توجهوا إلى هرمز ولكنهم لم يتمكنوا من اقتحام القلعة؛ فتوجهوا إلى «قشم» – التي انتفضت برئاسة الشيخ عبدالله – في محاولة لاسترجاعها والانتقام من مغتصبيها القواسم الذين قاموا في عام ١٧٥٥ مع ملا علي بحملة ضد قشم وحاصروا «لفت» المقر الرئيسي لزعيم قبيلة بني معين الذي دافع عنها، ولكنه توفي بعد ستة أشهر من فرض الحصار؛ فاضطر أتباعه إلى الاستسلام، وعندئذ طلب الشيخ عبدالله من حاكم بندر عباس جعفر خان وأهل هرمز تسليمة السفينة «فائز رباني» التي قادها ضد قشم، ولكن القواسم تمكنوا من دحره ورده إلى هرمز. ثم توجه الشيخ عبدالله إلى عُمان على ظهر «فائز رباني» للحصول على مساعدة إمام عُمان ضد القواسم، وعندئذ قام إمام عُمان – الذي كان في حرب مع القواسم– بتزويد الشيخ عبدالله بأسطول صغير مكون من «غراب» صغير– وهو نوع من السفن– وثلاث سفن صغيرة أخرى توجه بها الشيخ عبدالله إلى قشم التي تمكنت من صدّ هجومه. ثم وصل إلى بندر عباس عام ١٧٦٠ وفد من إمام عُمان لإجراء مفاوضات بين الأطراف المتنازعة ووضع حد للحرب، إلا أن الوفد لم ينجح في إحلال السلام بين الأطراف، ولكنه تمكن من عقد صلح بين القواسم وإمام عُمان، ثم رجع الوفد إلى مسقط أواخر عام ١٧٦٠. وفي عام ١٧٦٣ حدث صلح بين القواسم وملا علي وبني معين نصّ على أن يحتفظ بنو معين بهرمز، وأن يقيموا قلعة في «لافت»، وأن تقسم عوائد جزيرة قشم بين الأطراف الثلاثة بالتساوي.ثم حدثت عدة تطورات عام ١٧٦٥ في منطقة الجنوب الشرقي،واستطاع الشيخ عبدالله أن يثبت حكمه في هرمز، و لم يعد بحاجة للسفن الحربية الكبيرة؛ لهذا باع سفينته «فتح رباني» لإمام عُمان. أمين، المرجع السابق،ص٢٤–٢٦. سلوت، المرجع السابق،ص٣٧٣. عبدالقوي فهمي،القواسم نشاطهم البحري وعلاقاتهم بالقوى المحلية والخارجية ١٧٤٧–١٨٥٣،رأس الخيمة،مطبعة رأس الخيمة الوطنية، ١٩٨١،ص٨٥–٨٧.

(٢٦) فاضل محمد عبدالحسين جابر،عُمان في عهد الإمام أحمد بن سعيد ١٧٤٤–١٧٨٣ دراسة في التاريخ السياسي الحديث، ط٢، مسقط، وزارة الإعلام، ١٩٩٤، ص١٣٨.

(٢٧) يُشير وندل إلى أن الإمام أحمد رفض –بمجرد أن غادر تقي خان – «أن يدفع الجزية في الوقت المحدد، زاعماً أنه ليست لديه الوسائل المناسبة لإرسال المال إلى مسقط». وندل فيليبس، تاريخ عُمان، ترجمة محمد أمين عبدالله، ط٢، مسقط،وزارة التراث القومي والثقافة،١٩٨٣، ص٧٧.:.London،Oman and Muscat:an early modern history Patricai Risso Croom Helm،1986،p.57

(٢٨) لوريمر، القسم التاريخي،مج١، ص ١٥٣.

(٢٩) قاسم،الادعاءات الإيرانية في الخليج العربي ،ص١٦٧.يُذكر أن الإمام قال: أما بشأن الجزية السنوية التي كانت تدفع لنادر شاه،فلأن نادر شاه كان جباراً قوياً تستحيل مجابهته، فقد دُفعت له الجزية لا لكونها جزية مستحقة بل لأنه ليس من الحكمة رفض دفعها.ومن

جهة ثانية كان نادر شاه وكريم خان قوتين مختلفتين كل الاختلاف بحيث كنا نخاف الواحد ونحتقر الثاني.كان الأول فاتح فارس، والثاني وكيلاً فقط لمنطقتين أو ثلاث. مايلز، المصدر السابق،ص٢٢٦. لوريمر ،القسم التاريخي،مج ٢،ص١٤٨.

(٣٠) مايلز، المصدر السابق،ص٢٢٦. لوريمر، القسم التاريخي، مج ٢،ص١٤٨.

(٣١) يُشير هاولي إلى أن أسطول الإمام عام ١٧٧٥ كان يتألف من٣٤ سفينة حربية،بينها أربع في كل منها ٤٤ مدفعاً،وخمس بوارج تحمل ١٨-٢٤ مدفعاً.هاولي، المصدر السابق،ص٤٣.

(٣٢) لنجه على الساحل الشرقي للخليج ،وكانت تخضع لحكم القواسم منذ عام ١٧٥٠ إلى أن سقطت في يد القوات الإيرانية عام ١٨٨٧. وبفقدانها فقد القواسم أهم معقل لهم على الساحل الشرقي للخليج، وكان أول حاكم للنجه من القواسم الشيخ قضيب بن راشد بن مطر القاسمي الذي حكم عام ١٢٣٢هـ، وكان آخرهم الشيخ قضيب الثاني (١٣٠٣-١٣٠٤هـ)، إلا أنه في عام ١٣١٥هـ تمكن الشيخ محمد بن خليفة القاسمي -آخر من حكم لنجه- من استردادها من الحكومة الإيرانية ولكن الفترة لم تستمر كثيراً(سنة واحدة وتسعة أشهر) إذ سقطت لنجه مرة آخرى في يد الحكومة المركزية نهائياً. انظر: حسين بن علي الوحيدي الخنجي العباسي،تاريخ لنجه حاضرة العرب على الساحل الشرقي للخليج،ط١، ١٩٨٥، ص١٦-٢٨.

(٣٣) سرحان بن سعيد الأزكوي العماني، تاريخ عُمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، حققه ونشره عبدالمجيد حسيب القيسي، أبوظبي، الدراسات الخليجية، ١٩٧٦،ص١٥٢.

(٣٤) لوريمر، القسم التاريخي، مج ٢،ص١٤٨.

(٣٥) سلوت،المرجع السابق،ص٣٦٤.

(٣٦) لوريمر، القسم التاريخي، مج ٢،ص١٤٨. فارس، المرجع السابق،ص١٤٠.

(٣٧) فارس، المرجع السابق،ص١٤١. لوريمر، القسم التاريخي،مج١، ص١٥٣. المصدر نفسه، مج ٢،ص١٤٩.

(٣٨) قاسم،دولة البوسعيد في عُمان وشرق أفريقيا،ص٦٥. الشيخ ناصر آل مذكور شيخ من قبيلة المطاريش العربية من عرب عُمان، قدمت إلى الساحل الشرقي من الخليج في أواخر القرن السابع عشر أو أو أوائل القرن الثامن عشر، واتخذت من بوشهر قاعدتها الرئيسية، معتمدة في حياتها على البحر،وساهمت سفنهم في نقل تجارة الخليج. وأشهر زعماء هذه القبيلة الشيخ ناصر الذي حكم بوشهر حوالي أربعين عاماً حتى وفاته عام ١٧٨٩.وكان نادر شاه قد أوكل عليه حكم البحرين عام ١٧٣٦،إلا أن آل حرم تمكنوا من استعادتها؛ بعد وفاة نادر شاه عام ١٧٤٧ ما دفع ناصر آل مذكور إلى التعاون مع حاكم بندر الريق والعتوب، فتمكنوا من استعادتها عام ١٧٥٣ وبذلك ظلت البحرين في حكم ناصر آل مذكور وخاضعة من الناحية الاسمية لفارس حتى عام ١٧٨٣ حينما تمكن آل خليفة من العتوب السيطرة عليها، وطرد. الفرس. أحمد مصطفى أبو حاكمة، تاريخ الكويت،ط١،ج١،الكويت،١٩٧٣، ص١٤٥-١٤٧. صالح محمد العابد،دور القواسم في الخليج العربي،١٧٤٧-١٨٢٠،جامعة بغداد،بغداد،١٩٧٦،ص ١١٢-١١٣؛ سلوت، المرجع السابق،ص٣٣١-٣٣٤.

(٣٩) جابر،المرجع السابق،ص١٣٩.

(٤٠) فارس،المرجع السابق،ص١٤١.

(٤١) قاسم،دولة البوسعيد في عُمان وشرق أفريقيا،ص٦٦.انظر أيضاً: لوريمر، القسم التاريخي، مج ٢،ص١٤٩.

(٤٢) فارس،المرجع السابق،ص١٤١.

(٤٣) يعتبر الشيخ راشد بن مطر القاسمي الشخصية الثانية البارزة في تاريخ القواسم بعد الشيخ رحمة بن مطر القاسمي؛ فهو الذي وجه المرحلة الثانية من التوسع القاسمي.العابد، المرجع السابق،ص٩٥.

(٤٤) لوريمر، القسم التاريخي، مج١، ص١٥٣.

(٤٥) ظهر الخلاف بين القواسم والإمام أحمد منذ بداية تسلمه للحكم وتأسيس دولة البوسعيد؛ لأن القواسم بقيادة الشيخ رحمة بن مطر القاسمي تمكنوا بعد انهيار القوة البحرية الفارسية عقب اغتيال نادر شاه من تثبيت سلطتهم على الأقاليم التابعة لهم، وأعلنوا استقلالهم عن عُمان متخذين من جلفار(رأس الخيمة)عاصمة لهم، وكان القواسم قد انضموا إلى الحلف الغافري الذي انضم آنذاك إلى بلعرب بن حمير - منافس الإمام على الإمامة - في صراعه مع الإمام أحمد الذي أيدته القبائل الهناوية؛ ولذلك شارك القواسم في الحروب التي دارت بين أحمد بن سعيد وبلعرب بن حمير. وبعد أن تمكن الإمام أحمد من التخلص من منافسه بلعرب بن حمير وتثبيت سلطته قرر إخضاع القواسم لسلطته ما أدى إلى حدوث معارك عديدة بينهما.وفي ظل توتر الأوضاع بين الطرفين عمل الإمام على مساعدة بني معين - على الساحل الشرقي للخليج - الذين كانوا مع خلاف مع القواسم. ورغم محاولات الإمام لإخضاع القواسم إلا أنه لم يتمكن؛ بل إن الإمام اعترف في ستينيات القرن الثامن عشر(١٧٦٣) باستقلال القواسم، ومع ذلك استمر العداء بين الطرفين، وإن تخللته حالات من التعاون كما حدث عام ١٧٧٢/١٧٧٣.انظر: سلوت، المرجع السابق، ص٣٢٢. محمد مرسي عبدالله، دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها،ط١،الكويت،دار القلم،١٩٨١،ص١٢٣-١٢٤.

(٤٦) كان القواسم ينافسون الشيخ عبدالله في السيطرة على هرمز وجزيرة قشم؛ ولذلك حدثت عدة اشتباكات بينهما. انظر: هامش(١٤٥) من هذا البحث.

(٤٧) سلوت،المرجع السابق،ص٣٧٤.

(٤٨) قاسم،دولة البوسعيد في عُمان وشرق أفريقيا،ص٦٨. مايلز، المصدر السابق،ص٢٢٦.

(٤٩) لوريمر، القسم التاريخي، مج ٢،ص١٤٩. سلوت، المرجع السابق،ص٣٧٥. فارس، المرجع السابق، ص ١٤٢. قاسم، دولة البوسعيد في عُمان وشرق أفريقيا ،ص٦٨.

(٥٠) قاسم،دولة البوسعيد في عُمان وشرق أفريقيا ،ص٦٨–٦٩.انظر أيضاً: لوريمر، القسم التاريخي، مج ٢،ص١٤٩.

(٥١) لوريمر، القسم التاريخي، مج١،ص١٥٣.

(٥٢) فارس،المرجع السابق،ص١٤٢.

(٥٣) مايلز، المصدر السابق،ص٢٢٦. سلوت، المرجع السابق،ص٣٦٥. فارس،المرجع السابق،ص١٤٢. Risso،op،cit.،p.58

(٥٤) لوريمر، القسم التاريخي، مج ٢،ص١٤٩.

(٥٥) تعتبر من أبرز القبائل العربية في الأحواز، وهي قبيلة كبيرة لها فروع كثيرة وأفخاذ متعدة، وكانت قد استقرت منذ أواخر القرن السابع عشر في منطقة حوض نهر قارون فكانت لها الإمارة في القبان والفلاحية والأحواز. ومنذ بداية القرن الثامن عشر بدأت نشاطها العسكري عندما تصدت لمحاولات نادر شاه الرامية إلى إخضاع المنطقة لسيطرته. ومنذ منتصف القرن الثامن عشر أصبحت قوة يعتد بها في شرق شط العرب وغربه. ونتيجة لتنامي قوة هذه الإمارة حاولت كل من فارس والدولة العثمانية والإنجليز القضاء عليها. وقد انتهت هذه الإمارة العربية في عهد الشيخ خزعل بن الشيخ جابر الكعبي، عندما استولت عليها الحكومة الإيرانية عام ١٩٢٥.علي نعمة الحلو،الأحواز، عربستان في أدوراها التأريخية، ط١،ج٢،بغداد،دار البصري،١٩٦٩،ص٢٣٩.نورس،المرجع السابق،ص٢٣–٢٥.

(٥٦) استولى مير حسين حليف كريم خان على سفينة «تايجر» التابعة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية بالقرب من بوشهر، وذلك أثناء مغادرتها البصرة عقب الوباء الذي اجتاحها عام ١٧٧٣، وأسر من كان على ظهرها من موظفي الشركة وأرسلهم إلى شيراز عاصمة كريم خان. وقد ضمت هذه السفينة إلى الأسطول الفارسي في الخليج ضد الحملة التي كانت ستتوجه إلى مسقط، ورُفِض إطلاق سراح المحتجزين في شيراز، وكذلك السفينة إن لم يوقف الإنجليز مقاطعتهم التجارية للساحل الإيراني ويُعيدوا مستوطَنتهم في بوشهر. لوريمر، القسم التاريخي، مج١، ص١٥٢. أمين، المرجع السابق،ص٦٢. ويلسون، المرجع السابق، ص١٥٧–١٥٨.

(٥٧) لوريمر، القسم التاريخي،مج١،ص١٥٣. المصدر نفسه، مج ٢،ص١٤٩.

(٥٨) لوريمر، القسم التاريخي، مج ٢،ص١٤٩.

(٥٩) سلوت،المرجع السابق،ص٣٦٤.

(٦٠) لوريمر، القسم التاريخي، مج ٦، ص٢٩٤.

(٦١) المصدر نفسه،مج١، ص١٥٣.

(٦٢) تعود جذور العلاقات العُمانية بقبيلة كعب العربية إلى القرن الثامن عشر،الذي شهد نموها في ظل الصراع الدائر بين الفرس والعثمانيين، ولكي لا تخضع لنفوذ أي من الدولتين سعت لتمتين علاقاتها مع دولة البوسعيد في عهد الإمام أحمد، فتقدمت بطلب المساعدة الفنية منه لبناء أسطول حربي يعزز من قوتها العسكرية للمحافظة على استقلالها في ظل التنافس الذي تتعرض له، فاستجاب الإمام أحمد لهذا الطلب؛ لأنه كان يسعى لإقامة العلاقات الودية مع القوى العربية من أجل تقوية أساطيلها الحربية لتقف بوجه الأطماع الأجنبية ولاسيما الفارسية. وزوّدهم الإمام أحمد بالخبراء العُمانيين الذين ساهموا في بناء أسطولهم الحربي وتوسيعه حتى أصبح يضاهي في القوة أكبر الأساطيل الموجودة في الخليج العربي.وبذلك تعمقت العلاقات بين عُمان وإمارة بني كعب.جابر،المرجع السابق،ص١٣٥.

(٦٣) جابر،المرجع السابق،ص١٤٠.

(٦٤) لوريمر، القسم التاريخي، مج ٢،ص١٤٩.

(٦٥) كاظم باقر علي،البحرية الفارسية في الخليج العربي، البصرة، جامعة البصرة، ١٩٨٤ص٣٧.

(٦٦) Risso،op،cit.،p .٥٨.

(٦٧) Ibid.

(٦٨) Ibid،p.٥٩

(٦٩) سلوت،المرجع السابق،ص٣٧٥.

(٧٠) المرجع نفسه،ص٣٢٣.وللاطلاع على تقرير آخر صادر من المقيمية البريطانية في البصرة عن ازدهار عُمان التجاري، انظر: نورس،المرجع السابق،ص٥٦.

(٧١) تجدر الإشارة إلى أن الوكالة البريطانية قد انتقلت من ميناء بندر عباس إلى البصرة عام ١٧٦٣، واحتفظت بموطئ قدم في بوشهر التي أنشأ فيها البريطانيون مقيمة لهم فيها عام ١٧٦٤؛ وبذلك انتقل مركز النشاط التجاري والسياسي في الخليج من مدخل الخليج إلى شط العرب، وبذلك أيضاً نجح الإنجليز في إقامة مراكز لهم في البصرة.بموافقة السلطات التركية، وفي بوشهر بالاتفاق مع كريم خان، إلا أنهم انسحبوا من مقيمية بوشهر عام ١٧٦٩. ومما لاشك فيه أن نقل الوكالة البريطانية من الأراضي الفارسية إلى الأراضي التركية كان له أهمية سياسية حاسمة، وبسبب الطاعون الذي اجتاح البصرة عام ١٧٧٣ انتقلت الوكالة مؤقتاً إلى بوشهر،ثم عادت مرة أخرى إلى البصرة في يناير عام ١٧٧٤. لوريمر، القسم التاريخي، مج١، ص ١٤٦ ،١٥١، المصدر نفسه،مج٥، ص١٤٨. ويلسون، المرجع السابق،ص١٥٥.

(٧٢) يُعرف باسم سليمان باشا الكبير، وهو سيد داود باشا وزير بغداد الشهير. آلت إليه وزارة بغداد بعد ذلك، وقد عُرف بأنه من الرجال المعروفين بالعقل والحكمة والمقدرة على تسيير الأمور وضبط النظام. وعندما دخلت القوات الفارسية إلى البصرة أُرسل سليمان آغا مع مجموعة من الأعيان إلى شيراز أسرى حرب، ثم أعيد إلى البصرة، ثم تولى باشوية بغداد. وكان من أشهر ولاة المماليك الذين حكموا العراق ومن أقدرهم. الشيخ رسول الكركوكلي،دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء،نقله عن التركية: موسى كاظم نورس،ط١،قم،إيران،منشورات الشريف الرضي،١٩٩٣، ص١٥٢. ستيفن هيمسلي لونكريك،أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث،ترجمة جعفر الخياط،ط٤، إيران،منشورات الشريف الرضي،١٩٩٢،ص٢٣٠. خليفة بن محمد بن موسى النبهاني،البصرة التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربي،ط٢،البصرة،مركز دراسات الخليج العربي،١٩٨٠،ص٢٨٧.

(٧٣) وهنا تظهر السياسة الفارسية في محاولة الحصول على دعم القوى الأخرى في المنطقة لتحقيق أطماعها في المنطقة العربية عندما تفشل في تحقيقها بذاتها؛ ولذلك نجد أن فارس عقدت تحالفات سياسية متعددة مع القوى الأوروبية التي كانت في الخليج العربي، ومنها التحالف الفارسي البرتغالي في القرن السادس عشر؛ إذ عمل الطرفان على التعاون العسكري في منطقة الخليج العربي، وبظهور الإنجليز في الخليج العربي في القرن السابع عشر دخلوا معهم في تحالف....إلخ. ويكشف قراءة التاريخ الحديث للدولة الفارسية مدى المحاولات المتكررة التي كان حكامها يسعون فيها للحصول على المساعدات الأوروبية؛ فقد سعت فارس – إضافة إلى التحالفات السابقة – للحصول على المساعدات الهولندية والفرنسية في مراحل للاحقة مقابل عروض مغرية في سبيل تحقيق أهدافهم ومشاريعهم التوسعية.

(٧٤) لوريمر، القسم التاريخي،مج٥، ص١٥٢.

(٧٥) المصدر نفسه،ص١٥٢–١٥٣. أمين، المرجع السابق،ص٦٣. نورس، المرجع السابق، ص٥٧.

(٧٦) لوريمر، القسم التاريخي،مج٥، ص١٥٣. أمين، المرجع السابق،ص٨١.

(٧٧) أمين،المرجع السابق،ص٨١.

(٧٨) نورس،المرجع السابق،ص٥٧. فارس،المرجع السابق،ص١٤٣.

(٧٩) أمين،المرجع السابق،ص٦٣.

(٨٠) المرجع نفسه،ص٦٣.

(٨١) النبهاني، المصدر السابق،ص٢٨٦. نورس، المرجع السابق،ص٦٠. أمين، المرجع السابق،ص٧٠.ويُشير لوريمر إلى أن الجيش الفارسي كان قوامه ثلاثين ألفاً من المشاة والخيالة. لوريمر، القسم التاريخي،مج٥، ص ١٥٦.أما ما يتعلق بالسفن الثلاثين الصغيرة فيُشير أحد الباحثين إلى أنها كالتالي:١٥ غلافة (وهو نوع من السفن)، خمس منها تحمل كل واحدة عشرة مدافع، وعشر تحمل الواحدة ٦–٨ مدافع. أمين، المرجع السابق،ص٧٠.

(٨٢) ولعلنا نجد ما يؤكد هذا الرأي فيما ورد عند لوريمر حينما أشار إلى أنه وإن كان ليس من اليسير أن نذكر بالتأكيد أسباب إعلان الوكيل الفارسي لهذه الحرب، إلا أنه كان مدفوعاً برغبة غير طبيعية لتوسيع حدود فارس. لوريمر، القسم التاريخي،مج١ ،ص ١٥٣.

(٨٣) سلوت،المرجع السابق،ص٢٨٧.

(٨٤) لوريمر، القسم التاريخي،مج١، ص ١٥٣.ويُشير لوريمر أيضاً إلى أن من أسباب الهجوم على البصرة هو إرغام البريطانيين على إعادة فتح وكالتهم في بوشهر. المصدر نفسه، مج٥، ص١٥٣.

(٨٥) لوريمر، القسم التاريخي، مج ٢، ص١٥٠.

(٨٦) مايلز،المصدر السابق،ص٢٢٧.

(٨٧) من الأسباب التي كانت تدفع كريم خان الزند إلى احتلال البصرة توتر العلاقة بينه وبين باشا بغداد؛ إذ تمكن باشا بغداد من دحر جيوش

كريم خان على حدود العراق الشمالية؛ فأراد الأخير الانتقام من الباشا بمهاجمة حدود ولايته الجنوبية؛ وذلك لعلمه بضعف مركز الباشا وعجز وسائل دفاعة البحرية. ومن ثَمّ فإن كريم خان الزند حاول اغتنام هذه الفرصة مع اعتقادة أنها ستكون بثمن بخس. ومن الأسباب كذلك أن كريم خان كان ينظر إلى ازدهار تجارة البصرة وتقدمها بعين الحسد والغيرة؛ فأراد أن يكون هذا الازدهار من نصيب الموانئ الإيرانية على الخليج، وكان احتلال البصرة خير وسيلة لتحقيق ذلك. وهناك من يرى أن رواج الحركة التجارية في البصرة واستقرار أمورها من الأسباب التي دفعت كريم خان إلى الحرب، إلا أن هذا الرخاء لم يبق منه إلا القليل أمام الطاعون الذي اجتاح المدينة عام ١٧٧٣، ومن ثَمّ يمكن قول: إن دوافع هذا الاحتلال كان أبعد من ذلك. الكركوكلي، المصدر السابق، ص١٤٤–١٤٥. أمين، المرجع السابق،ص٦٢. مايلز، المرجع السابق،ص٢٢٧. لونكريك، المصدر السابق،ص٢٢٦.

(٨٨) جابر، المرجع السابق، ص١٤٠

(٨٩) اتهم كريم خان البصريين بتقديم المساعدة البحرية لشركائهم في النشاط التجاري، العُمانيين الذين «كان يعدّ نفسه في حالة حرب معهم لكونهم متمردين».وطبقاً للمؤرخين الفرس فإن والي بغداد رفض السماح للجيش الإيراني بعبور الأراضي العراقية للزحف على طول الساحل الغربي للخليج العربي لمساندة القوة البحرية المحتشدة في ميناء كنكون لغزو عُمان بقيادة زكي خان. وتُشير تقارير شركة الهند الشرقية إلى أن أسطول كريم خان الزند حاول عام ١٧٧٤ التعرض لمسقط إلا أن متصرف البصرة سليمان آغا تمكن بالقطع البحرية التي يمتلكها من تشتيت أسطول كريم خان الزند. العابد،البصرة في سنوات المحنة ١٧٧٥–١٧٧٩،مجلة المورد، بغداد،مج ١٤،ع٣ ،١٩٨٥،ص٤٠.

(٩٠) كان كريم خان قد أرسل إلى السلطان العثماني مصطفى الثالث يطلب منه إعدام عمر باشا، ولكن السلطان لم ينفذ هذا الطلب؛ فقرر كريم خان حشد الجيوش لاحتلال البصرة. وقبل وصول الجيوش توفي السلطان العثماني وخلفه السلطان عبدالحميد الأول الذي أمر بقتل والي بغداد؛ وطلب من كريم خان الزند سحب قواته من على مشارف البصرة إلا أن كريم خان رأى في تصرف السلطان ما يُشير إلى ضعف الموقف العثماني وتدهوره؛ فقرر استغلال الفرصة التي جاءته باحتلال البصرة. الجاف، المرجع السابق،ص١٤٢. أمين، المرجع السابق،ص٦٢–٦٣. ويلسون، المرجع السابق،ص١٥٦. لوريمر، القسم التاريخي،مج١، ص١٥٣.

(٩١) وتلك السياسة هي ما إن يتم لهم تأمين السيطرة على الوضع الداخلي حتى يقوموا بإشغال الأهالي بالحروب الخارجية ضد العثمانيين الذين لا شك في أن قتالهم كان يستثير نخوة الإيرانيين الشيعة، ويستميلهم لنصرته وتأييد سياسته؛ إذ كان يعلم بأن ليس هنالك من عوامل وأسباب تحمل الشيعة وترغمهم على تجنب المنازعات الداخلية وطرحها جانباً وتجمعهم حول فكرة واحدة سوى العمل على استرداد الأماكن الشيعية المقدسة التي كان العثمانيون يسيطرون عليها كالنجف وكربلاء؛ ولهذا كان الاستيلاء على العراق من الأهداف الرئيسية لكريم خان الزند، ولاسيما بعد أن فقد «مشهد» حيث مقام الإمام علي الرضا؛ ولهذا كان عليه أن يعوض من تلك الخسارة الكبرى بالسيطرة على العتبات المقدسة في العراق التي أصبحت في تصوره أسهل في الوصول إليها من مشهد بسبب حالة الضعف التي كان العراق يعانيها. الجاف، المرجع السابق، ص١٤٢. العابد، البصرة في سنوات المحنة ١٧٧٥–١٧٧٩، ص٣٩.

(٩٢) فمن ناحية لم تكن الاستحكامات الحربية للبصرة محصنة؛ فالسور كان متداعياً، ومعظم المدافع غير قابل للاستعمال، وعدد قوات الحامية لم يكن يبلغ خمسة عشر ألف مقاتل، وقوة القبائل لم تكن تبلغ عشر هذا المقدار، أما القوة البحرية فكانت أربع قطع حربية، اثنتان كبيرتان وهما «دجلة» و«الفرات» وتحمل كل واحدة أربعة عشر مدفعاً،إضافة إلى عدد من السفن الصغيرة. لونكريك، المصدر السابق،ص٢٢٧. أمين، المرجع السابق،٦٥.

(٩٣) قبيلة عربية استقرت في القسم الجنوبي من العراق،وهو استقرار قديم يتزامن مع حركة الفتوح الإسلامية، ويقول لوريمر: إنها أكبر قبيلة وأقواها في العراق التركي. وقد برز ذكرها في أحداث المنطقة في أواخر القرن العاشر الميلادي وأوائل القرن الثاني عشر. ويرتبط تاريخها الحديث بتاريخ آل سعدون –أمراء المنتفق– وأسلافهم آل شبيب. وقد تمكن أحد أسلاف تلك الأسرة من تكوين مشيخة بعد أن تمكن من استقطاب ولاء القبائل القاطنة في الجنوب، وكانت تلك المشيخة تتكون من بني مالك والأجود وبني سعد. وقد ارتبط تاريخ هذه القبيلة بتاريخ البصرة. ولمّا حاولت الدولة العثمانية أن تفرض سلطاتها وقوانينها على المنتفق – وهو أمر لم تعتده قبيلة المنتفق التي كانت تُدير شونها بذاتها – حدثت حروب بين الطرفين، وكادت المنطقة الخاضعة للمنتفق أن تصبح إمارة مستقلة. وقد تلقب أحد شيوخها بـ «سلطان البر»، وهو ما عملت الدولة العثمانية على تدمير ذلك الاستقلال. وقد أدّت هذه القبيلة وأمراؤها من آل سعدون دوراً كبيراً في تحرير البصرة من هذا الغزو الفارسي الذي تعرضت له، وأدّت دوراً في تاريخ العراق وتاريخ الخليج العربي أيضاً. خالد حمود السعدون، الأوضاع القبلية في البصرة ١٣٢٦–١٣٣٧/١٩٠٨–١٩١٨، ط١،الكويت، شركة الربيعان للنشر والتوزيع، ١٩٨٨،ص١٧–١٩. لوريمر، القسم الجغرافي، مج٥، ص١٦٢–١٦٣. للتفاصيل انظر: حميد حمد السعدون، إمارة المنتفق وأثرها في تاريخ العراق والمنطقة الإقليمة ١٥٤٦–١٩١٨، ط١،الأردن،دار وائل،١٩٩٩.

(٩٤) كان في الأصل ضابطاً بحرياً، وفي سنة ١٧٦٧عُيّن قنصلاً ووكيلاً تجارياً في ميناء الإسكندرية، وبعد ست سنوات من العمل استقال من هذا المنصب وبدأ القيام برحلته الاستطلاعية التي وصل فيها إلى البصرة التي صادف وجوده فيها قيام الفرس باحتلالها، فقدم عرضاً ووصفاً شائقاً للأحداث التي جرت. أمين، المرجع السابق،٦٥. نورس، المرجع السابق،ص٦٢.

(٩٥) لونكريك، المصدر السابق،ص٢٢٧.انظر أيضاً: الكركوكلي، المصدر السابق،ص١٥٢.

(٩٦) لونكريك، المصدر السابق،ص٢٢٧. أمين، المرجع السابق،ص٦٤–٦٥.

(٩٧) مع أن هنري مور الوكيل البريطاني في البصرة أعلن في البداية أنهم سوف يلتزمون الحياد في الحرب، ولن يسمح للسفن الإنجليزية في الميناء والإنجليز الموجودين بالتدخل في الحرب القائمة بين الإيرانيين وباشا بغداد، إلا أنه – نتيجة كرهه للإيرانيين ولكريم خان خاصة وكثرة تقلباته وعدم ثبوته على رأي معين – غير موقفه وأبدى حماساً كبيراً للدفاع عن مدينة البصرة؛ فشارك مع متصرف البصرة في وضع الترتيبات اللازمة للدفاع عنها. وشاركت السفينتان الإنجليزيتان (سكسس Success ، و إيغل Eagle) في الدفاع عن المدينة. وتولى بعض البحارة الإنجليز قيادة سفينتي الباشا الشراعيتين وسفينتين تركيتين من نوع الغلافات، ولكن الإنجليز تخلوا بعد ذلك عن المشاركة في الدفاع عن المدينة في وقت حرج جداً؛ فقد كانت بين كريم خان الزند وشركة الهند الشرقية اتصالات لتسوية الخلافات. وفي الواقع كان الإنجليز يعتقدون أن كريم خان سيُسيطر على البصرة، وسيفرض سيطرته على الخليج؛ ولذا رأو أن من الأفضل عدم الاستمرار في معاداته.. وقد ترتب على انسحاب السفن الإنجليزية المدافعة عن المدينة أن أصبح الوضع في مصلحة فارس، وحوصرت البصرة من البر والبحر؛ ما زاد من صعوبة الأوضاع فيها.وهنا كتب بارسونز: لو أن تلك المساعدات الإنجليزية بقيت لعجزت إيران برمتها عن أخذ المدينة واحتلالها. لوريمر، القسم التاريخي،مج١، ص١٥٤. المصدر نفسه، مج٥، ص١٦٤. أمين،المرجع السابق،ص٦٧–٧٢.

(٩٨) الأزكوي، المصدر السابق،ص١٥٢.

(٩٩) مايلز، المصدر السابق،ص٢٢٧.

(١٠٠) وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على صمود البصرة بإمكانياتها القليلة أمام قوات صادق خان؛ فلم تحاول طلب المساعدة من الإمام منذ بدء الهجوم عليها، وإنما تقدمت بهذا الطلب بعد أن أصبح وضعها يتطلب مساعدة طرف آخر.

(١٠١) لونكريك، المصدر السابق،ص٢٢٩.

(١٠٢) الأزكوي،المصدر السابق،ص١٥٢.

(١٠٣) لونكريك، المصدر السابق،ص٢٢٩.انظر أيضاً: مايلز، المصدر السابق،ص٢٢٧.

(١٠٤) قاسم، دولة البوسعيد في عُمان وشرق أفريقيا، ص٦٦. ويُشير لوريمر إلى سبب آخر دفع الإمام إلى مساعدة البصرة وهو كما يقول: «ويبدو أن الوعد بمساعدة مالية تركية حفز الوضع الطبيعي لحاكم عُمان في تلك الظروف للوقوف إلى جانب الباب العالي»، ولكننا نرى أن الإمام –من وجهة نظرنا– لم يكن بحاجة إلى مساعدة مالية وإن كان في عداء مع فارس، ولاسيما أن عمان كانت تتميز في عهده بنشاط تجاري يعود على البلد بمردود اقتصادي جيد أدى إلى ازدهارها.

(١٠٥) العابد،البصرة في سنوات المحنة ١٧٧٥–١٧٧٩،ص٤٥.

(١٠٦) لوريمر، القسم التاريخي،مج٥، ص١٦٧.

(١٠٧) لونكريك، المصدر السابق،ص٢٢٩.

(١٠٨) الأزكوي، المصدر السابق،ص١٥٢.ويقول ابن رزيق: «إن الإمام جهز عشرة مراكب كباراً من مراكب السلطنة،ومن الخشب الصغار كثيراً». ابن رزيق،الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، ص٣٧٠.

(١٠٩) ابن رزيق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، ص٣٧٠.

(١١٠) تختلف المصادر في عدد القطع البحرية المرافقة لهذا الأسطول، وتختلف في الشخص الذي أوكلت عليه قيادة الأسطول؛ فهناك من يقول: إن الإمام بنفسه قاد هذا الأسطول،على حين يرى البعض أن القيادة كانت لابنه هلال، والبعض الآخر يقول: لسيف وقيس ابني الإمام، يرافقهما ماجد بن سعيد. الأزكوي، المصدر السابق،ص١٥٢.هاولي، المصدر السابق،ص٤٣. فالح حنظل، المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة، ج١، أبوظبي، لجنة التراث والتاريخ، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٨٣،ص٢٢٩. فارس،المرجع السابق،ص١٤٥. جابر،المرجع السابق،ص١٤١. نورس،المرجع السابق،ص٧٠.

(١١١) لوريمر، القسم التاريخي،مج٢، ص١٤٩–١٥٠.

(١١٢) مايلز، المصدر السابق،ص٢٢٧. لوريمر، القسم التاريخي،مج٥، ص١٦٧.

(١١٣) أمين،المرجع السابق،ص٧٣.

(١١٤) لم يكن الإيرانيون غافلين عن التحرك العُماني باتجاه البصرة؛ ولذا أصدر كريم خان أوامره بجمع كل ما يمكن الحصول عليه من سلاسل حديد،وتم لحامها بعض في شيراز، وأرسلت إلى صادق خان من أجل إغلاق مجرى شط العرب أمام الأسطول العربي. وأنجز ذلك بالفعل، ووضعت قوة كبيرة مزودة بالمدفعية عند طرفي السلسلة على جانبي النهر. وقد عاقت هذه العملية سرعة وصول الإمام وأسطوله. العابد، البصرة في سنوات المحنة ١٧٧٥–١٧٧٩، ص٤٦.

(١١٥) الأزكوي، المصدر السابق،ص ١٥٣.

(١١٦) أمين،المرجع السابق،ص٨٥.

(١١٧) ابن رزيق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، ص٣٧٠. نورس،المرجع السابق،ص٧٠. حنظل، المرجع السابق،ص٢٣٠. جابر،المرجع السابق،ص١٤١. مايلز، المصدر السابق،ص٢٢٧. العابد، البصرة في سنوات المحنة ١٧٧٥–١٧٧٩، ص٤٦.

(١١٨) لونكريك،المصدر السابق،ص٢٢٩.

(١١٩) أمين،المرجع السابق،ص٧٣.

(١٢٠) فارس،المرجع السابق،ص١٤٦.

(١٢١) حنظل،المرجع السابق،ص٢٣١. العابد،البصرة في سنوات المحنة ١٧٧٥–١٧٧٩، ص٤٦.

(١٢٢) الأزكوي، المصدر السابق،ص١٥٣.

(١٢٣) يذكر وصول قوة فارسية كبيرة يقودها علي محمد خان زند لتنضم إلى قوات صادق خان. العابد، البصرة في سنوات المحنة ١٧٧٥–١٧٧٩، ص٤٦.

(١٢٤) أمين، المرجع السابق،ص٧٣. نورس، المرجع السابق،ص٧١.

(١٢٥) كان هذا التمرد يعود إلى التنافس على الحكم؛ فقد استولى أبناء الإمام على مسقط وقلعتيها (الميراني، والجلالي) بعد أن تمكنوا من خدعة واليها خلفان بن محمد، ثم زحف الإمام أحمد نحو مسقط واستنجد والده بالشيخ صقر بن راشد القاسمي، ولكن الإمام وولديه قاموا بتسوية خلافاتهم نتيجة الشعور بالخطر القاسمي. وتجدر الإشارة إلى أن تمرد ابني الإمام لم يتوقف عند هذا الحد؛ فقد قاما بتمرد آخر عام ١٧٨٢، وانتهى بتسوية من الإمام. العابد، المرجع السابق،ص٩٦. الأزكوي، المصدر السابق،ص١٥٣–١٥٤.

(١٢٦) مع أن القواسم وقفوا مع الإمام في حربه على الفرس ولاسيما بعد التعاون الذي تم عام ١٧٧٢/١٧٧٣،إلا أن العلاقات عادت إلى طبيعتها السابقة من العداء المستمر؛ ففي عام ١٧٧٥ تجددت حالة الحرب بين الإمام والشيخ راشد بن مطر، وأصبح القواسم في هذه الفترة أكثر قوة، ولكن العلاقات الودية عادت مرة أخرى إثر استقالة الشيخ راشد من الزعامة بسبب تقدمه في السن في سنة ١٧٧٧، وتولي ابنه الشيخ صقر بن راشد بن مطر القاسمي الحكم،الذي عقد هدنة مع الإمام أحمد بن سعيد، ثم تجددت الحرب في السنة التالية، عندما استولى الشيخ صقر على بعض السفن الفارسية بحجة أن حملتها عُمانية؛ فوجّه الإمام حملة ضد القواسم، وترتب على ذلك قيام الشيخ صقر بالهجوم على الباطنة. واستغل القواسم فترة الثورة التي قام بها ابنا الإمام أحمد سواء بالتدخل في الأراضي العُمانية أو بمناصرة ابني الإمام على والدهما. و قد استمرت حالة العداء بين الطرفين حتى بعد وفاة الإمام أحمد. فهمي، المرجع السابق،ص٧٦–٧٧. العابد،المرجع السابق،ص٩٥–٩٧.

(١٢٧) حنظل، المرجع السابق ص ٣٢١.

(١٢٨) مايلز، المصدر السابق،ص٢٢٧.

(١٢٩) ابن رزيق ،الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، ص٣٧١. نورس،المرجع السابق، ص٥٨.

(١٣٠) قاسم،الادعاءات الإيرانية في الخليج العربي، ص١٧٨. ابن رزيق ،الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، ص٣٧١.

(١٣١) ابن رزيق،الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، ص٣٧١.

(١٣٢) ومن ذلك أن الناس باعوا كل ما يملكونه للحصول على قوتهم، و لم يكن هناك عمل يتقاضون منه الأجور، بل وصل الأمر بهم إلى أكل لحوم الحيوانات المحرمة، وكل ما وصلت إليه أيديهم. لونكريك، المصدر السابق، ص٢٣٠. الكركوكلي، المصدر السابق،ص١٥٥. النبهاني، المصدر السابق،ص٢٨٧. ابن الغلامس، البصرة ولاتها ومتسلموها من تأسيسها حتى نهاية الحكم العثماني،ط١،بيروت،الدار العربية للموسوعات،٢٠٠٨،ص٧٧.

(١٣٣) لونكريك،المصدر السابق،ص٢٣٠.

(١٣٤) الكركوكلي، المصدر السابق،ص١٥٥. النبهاني،المصدر السابق،ص٢٨٨–٢٨٩.

(١٣٥) لوريمر، القسم التاريخي،مج٥، ص١٦٩.

(١٣٦) المصدر السابق،ص١٦٩–١٧٠. لونكريك، المصدر السابق،ص٢٣٠.

(١٣٧) لونكريك، المصدر السابق،ص٢٣٣.

(١٣٨) لوريمر، القسم التاريخي،مج٥، ص١٧٠.

(١٣٩) المقصود كريم خان الذي أطلق على نفسه لقب «الوكيل».

(١٤٠) لوريمر، القسم التاريخي،مج٥، ص١٧٠.

(١٤١) نورس،المرجع السابق،ص٧٢.

(١٤٢) تجدر الإشارة إلى أن انسحاب قوات صادق خان من البصرة، وإن كان لموت كريم خان شيء من السبب إلا أن الحقيقة التي يجب ألا نغلفها في هذا الانسحاب هو ذلك الدور التاريخي والبطولي الكبير الذي أدّته قبيلة المنتفق في إخراج الفرس من البصرة؛ فقد كانت من القبائل التي تصدت لهذا الوجود الفارسي في أراضي البصرة، ومن ذلك ما فعله الشيخ ثامر السعدون الذي أقدم على وضع الخطط وحبكها لتحرير البصرة والتي نجحت بالفعل في معركتي «الفضيلة» و«أبي حلانة» الشهيرتين؛ ففي الأولى التي حدثت عام ١٧٧٧ تقدم الفرس عدة أميال في بلاد المنتفق «المنتفك»، وشنت هجوماً عليهم، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين يقال لها «الفضيلة» غرب نهر الفرات أسفرت عن اندحار الفرس وخسارتهم خسارة فادحة. وفي الثانية التي حدثت عام ١٧٧٨، أنذر القائد الفارسي محمد خان الشيخ ثامر السعدون بأن ينزل على طاعته ويذعن لأوامره، إلا أن الشيخ رفض المطالب الفارسية؛ فتحرك جيش فارسي من البصرة إلى أرض المنتفق وكان عدده عشرة آلاف جندي مع ثمانية عشر زورقاً نهرياً تحمل المدافع، وبفعل الخطة والحيلة التي دبرها المنتفقون هزمت القوات الفارسية هزيمة شنيعة، واستمرت المذبحة فيهم حتى أفنوا عن آخرهم،و لم ينج من الجيش سوى ثلاثة أنفار فروا راجعين إلى البصرة . وقد استغرق تنظيف ميدان المعركة بعد ذلك عدة أسابيع، وظلت عظام القتلى – وكانوا كثراً – تشير إلى هذه الموقعة الرهيبة مدة جيل. لونكريك، المصدر السابق،ص٢٣١-٢٣٢. لوريمر، القسم التاريخي،مج٥ ،ص١٧٤. الكركوكلي، المصدر السابق،ص١٦٧-١٦٨. النبهاني، المصدر السابق،ص٢٩٠-٢٩١. ابن الغملاس، المصدر السابق،ص٧٨-٧٩. نورس، المرجع السابق،ص٧٤-٧٥.

(١٤٣) لوريمر، القسم التاريخي،مج١، ص١٥٦. المصدر نفسه،مج٢، ص١٥٠. أمين،المرجع السابق،ص٧٣. قاسم،الادعاءات الإيرانية في الخليج العربي،،ص١٧٨. فارس، المرجع السابق،ص١٤٧.

مليحة ...من هنا مرت القوافل

خالد حسين صالح منصور

حين تهب الرياح في مليحة ظهيرة يوم قائظ يستحيل على المرء تخيل أن هذه المنطقة احتضنت بين جوانبها مظهراً من مظاهر التحضر والرقي في الفترة التي سبقت ظهور وسائل التقنية الحديثة، التي مكنت الإنسان من اتقاء الحر، وتكييف الهواء، وتحلية مياه البحر ليطفئ عطشه..

وفي هذا المقال نحاول تبديد السراب وجلاء الحقيقة التاريخية لهذه المنطقة، لنعيد رسم صورة تقريبية لها قبل نحو ألفي عام، حين كانت تعجّ بالنشاط والحيوية، ويسمع فيها حُداء لا ينقطع؛ يستحث قوافل ويجذب تجاراً إلى واحة غناء، ونركّب تفاصيل قصة الحياة فيها مما وجده علماء الآثار في بطن أرضها من لقى ومعثورات، وما استنتجوه من دراسة هذه القطع الثمينة، ومقارنته بما وجد في واحات وقرى عاصرت مليحة في أوج شبابها، لعل تلك الجوامد تنطق بلسان من كانوا يوماً صُنّاع تاريخها.

صدى المعاول:

لئن كان النفط نعمةً على دول الخليج العربي منذ اكتشافه وقد غيّر حياة الناس من الشظف والشقاء إلى الرخاء و اليسر، فإن له فضلاً كذلك على ثقافة البلاد وتاريخها، وإن مصادفةً؛ إذ كان لبعض المنقبين عن النفط في ثلاثينيات القرن العشرين اهتمامات أخرى غير البحث عن الذهب الأسود! إنه البحث عن ذهب أغبر لا يقل عند الشعوب الواعية قيمة عن الذهب بألوانه المتعددة؛ بل يفوقه، إنها الآثار التي تحفظ ذاكرة الشعب، و تحدد جذور هوية الأمة. دقت تلك المعاول في أرض الإمارات وغيرها من أقطار الخليج فشعّ في أعين أصحابها بريق تاريخ ضارب في جذورها، وكان لأبوظبي قصب السبق في السباق.

حضارات الجزيرة العربية وما حولها

أم النار...تنير الطريق:

لئن كانت البحرين أسبق في الخليج العربي في إدهاش العالم بما تكتنزه من علامات الحضارة وإشاراتها منذ القرن التاسع عشر على يد البريطاني ديوراند،[١] فإنها كانت فألاً حسناً أيضاً لشقيقتها أبوظبي التي وفد إليها عام١٩٥٩م فريق تنقيب دنماركي يعمل في البحرين بقيادة جيفري ببي، وبيتر غلوب، وحطّ رحاله في جزيرة «أم النار» على مرمى حجر من جزيرة أبوظبي. و لم يكن ذلك الفريق يرجم بالغيب، ولا ألقت به المصادفة إلى ذلك المكان؛ بل وردت إليهم أخبار من صديق لهم هو تيم هليارد الذي كان يعمل في شركة للنفط، وكان قبل ذلك يعمل في البحرين، وعاين التنقيبات الأثرية فيها، ولما رأى غرابة التلال في أم النار وقارنها بما رأى في البحرين قاده ظنّه إلى الاتصال بزملائه هناك، وأبرق لهم برسالة قدحت مشعل التنقيب في الإمارات، وقال لزميله بيبي واصفاً ما خلب لبه : «...اثنا عشر تلاً من طراز البحرين اكتشف في جزيرة قرب أبوظبي، هل يمكنك القدوم مع ب. ف. غلوب ؟». [٢]

وبالفعل استطاعت البعثة عام ١٩٥٩م إنارة درب التنقيب في تاريخ الإمارات العريق بمكتشفات أم النار، ووجدت مدافن أم النار الدائرية بعمرها الذي يزيد على أربعة آلاف عام، مؤكدةً أهمية موقع جنوب شرقي الجزيرة العربية الذي يتوسط المسافة بين حضارات ازدهرت منذ آلاف السنين، في وادي السند ووادي الرافدين، ودلمون واليمن، وأثرت في المنطقة ثقافياً واجتماعياً، وسياسياً واقتصادياً للتداخل البشري والجغرافي العميق بينها.

توالت بعثات التنقيب على الإمارات، وأهمها بعثة التنقيب العراقية التي كانت أول بعثة تنقيب بعد قيام الاتحاد وثمرة الاتفاقية الثقافية بين دولة الإمارات والجمهورية العراقية الموقعة عام ١٩٧١م، و من بنودها إرسال بعثات تنقيب عراقية إلى الدولة.[٣]

اسم ومسمى:

(امليحة) هي ذاتها «مليحة» ولكن بنطق بدوي يلهج به أهلها وأهل الشارقة جميعاً، وإن لم يوجد مصدر تاريخي يبين أصل الاسم وبدء استخدامه، أمّا في اللغة فإن جاء اسمها من «المَلاحة» بالفتح فإنها تعني الشيء الجميل البهيج حسن المنظر، يقال: أرض مَليحة، وشيء مَليح، واستمْلَحَ الشيءَ؛ أي وجده مَليحاً حسناً.[٤]

خريطة توضح موقع مليحة وأهم المواقع الآثارية التي عملت فيها البعثة المحلية

التقاط الإشارات:

كانت الشارقة أواخر عام١٩٧٢م على موعد مع التنقيب وأهله لتكشف أسرار تاريخها المودع في الرمال، ولعل مما ساعد على ذلك أن حاكم الإمارة واحد ممن شغل التاريخ عقله ووجدانه بعد أن آمن بدور أمته في مسيرة الحضارة الإنسانية، إنه صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة الذي بادر إلى دعوة بعثة التنقيب العراقية العاملة في الدولة برئاسة الأستاذين: طارق مظلوم – رحمه الله – ومنير طه، ومشرفهم الأستاذ محمد علي مصطفى رحمه الله – لزيارة الشارقة. وكان سموه بنظره الثاقب وخبرته بأرضه قد حثّ البعثة على زيارة «مليحة» والتنقيب فيها بعد أن وجدت فيها آثار نفيسة منها بعض النقوش التي تعود لما قبل الإسلام.[٥] وبادرت البعثة فور وصولها إلى إجراء مسوح في مناطق مختلفة من الإمارة منذ ٢٠ /١/ ١٩٧٣م منها مسوح في أربعة أماكن في «مليحة» استمرت حتى ٢٨ إبريل من نفس العام[٦]، وعثرت في أولها على كِسَر فخارية عليها خطوط حمراء أرّختها بالفترة بين القرنين الرابع والثاني قبل الميلاد، واكتشفت أيضاً قواعد لمبنىً من اللبِن يحوي عدداً من الغرف.

وفي مزرعة قريبة وجدت بقايا مدفن مربع الشكل فيه بعض اللقى الأثرية التي أكدت أنه من نفس الفترة، لكنه تعرض للنهب والتخريب منذ زمن، أما ثالثها فوجدت فيه مدفناً مربع الشكل تعرّض للتدمير كسابقه، ووجدت فيه لقى أثرية تعود للفترة ذاتها، وأهمها مقابض لجِرار «الأمفورا» الإغريقية تحمل كتابات يونانية قديمة، جعلت منقبي البعثة يعتقدون أن المدفن يعود إلى (أحد اليونانيين الذين عاشوا هنا) في مليحة«قبل أكثر من ألفين ومئتي عام». [٧] وقد زال هذا الطرح عندما تواصلت التنقيبات، وأثبتت أن هذه المعثورات هي «بقايا لِجرار تنتقل بالتجارة ولا تدلّ أبداً على وجود جالية يونانية في مليحة». [٨] أما الموقع الرابع فقد وجدت به أجزاء منزل كبير نُعِت بالقصر لبنائه المميز باللبِن وكسوة بعض جدرانه الداخلية بالجصّ [٩] ربما لثراء صاحبه.

وقد زار المغفور له – بإذن الله – الشيخ زايد في مارس ذلك العام موقع «مليحة» أثناء جولته بالمنطقة الوسطى من إمارة الشارقة، واطلع على مكتشفات المنقبين وما توصلوا إليه من انطباعات أولية عن الموقع، واستنتج بثاقب بصره أن الموقع كان ذا أهمية زراعية وتجارية، وهو ما ثبت بعد ذلك، وشدد – رحمه الله – على أن هذه الآثار«يجب أن يطلع عليها المواطنون قبل غيرهم، ثم جميع الدارسين والمعنيين بحضارة دولة الإمارات لكي يقفوا جميعاً على حقيقة تاريخ هذه الدولة وحضارتها؛ فالدولة التي ليس لها ماض ليس لها مستقبل». [١٠]

ولّما كانت الشارقة لا تملك متحفاً آنذاك فقد سلمت البعثة اللقى المكتشفة للمتحف الوطني الأم بدولة الإمارات في العين، الذي احتضن أولى المكتشفات الآثارية في إمارات الدولة. [١١]

حين يجمع الباحث أجزاء الصورة الأولى لكنز «مليحة» يرى إشارات قوية تدل على استقرار سكاني سبق الميلاد بقرون، وعلامات تواصُلٍ مع الخارج لامَسَ ضفافَ البحر الأبيض المتوسط، فأثمر ثراءً تجلّى في بناء القصر...وهنا جاء السؤال: لماذا مليحة؟

ابنة الجبل:

مليحة في سهل خصيب في المنطقة الوسطى من إمارة الشارقة على مسافة ٥٠كم شرق مدينة الشارقة وجنوب الذيد. وهي تدين للجبل بأنه سبب وجودها بفضل الله على وجه الأرض؛ إذ يرى الجيولوجيون أنها جزء من السهل الحصوي المتكون من رواسب حملتها المياه المنحدرة من جبال «الحجر» على مدى فترات طويلة. ولّما كانت مليحة محصورة بسلسلة من الجبال الصغيرة تفصل بين السهل الحصوي والصحراء، فإن المياه القادمة من جبال «الحجر» في الشرق

تصطدم بالجبال الصغيرة عند انحدارها غرباً وتضطر إلى السير بموازاتها مسافةً تتيح لها التغلغل في الأرض، وتغذية مخزون المياه الجوفية، ويترسب الطين و«الغرين» الذي تحمله في السهل، لتكسبه خصْباً يتجدد كلما سال في أرضه وادٍ. وحمت الجبال الصغيرة السهل من زحف الكثبان الرملية أثناء هبوب الرياح من جهة الغرب، وحفظت خصْبة من أن تدفنه كثبان الصحراء؛ ما سهل زراعته منذ القدم ليظل حتى وقتنا الحاضر يعجّ بالمزارع المعتمدة على الآبار،منها المحفور منذ قرون وعثر عليه أثناء التنقيب، ولتبقى الآبار مورد الماء حين قلت الأمطار؛ ما يؤشر إلى الكمية الهائلة التي اختزنها سهل مليحة الحصوي منها في الفترات المطيرة.[١٢]

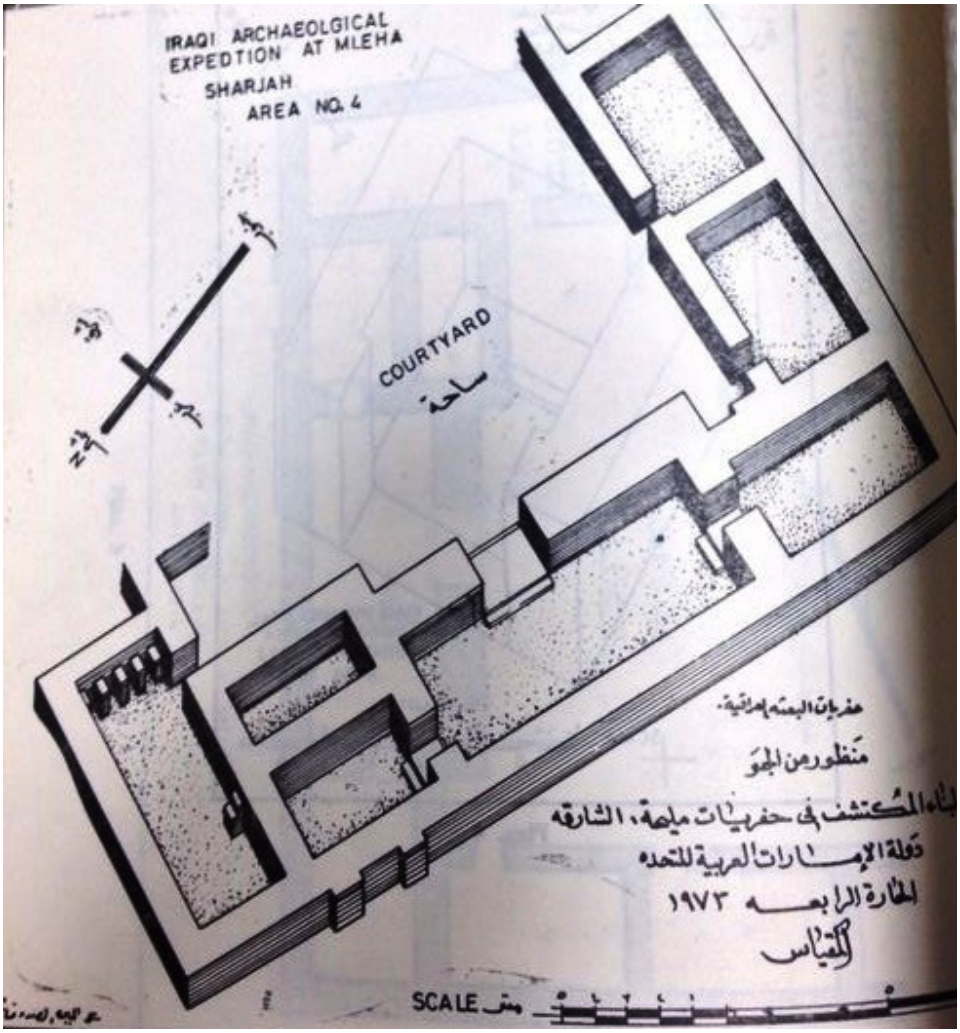

مخطط نشرته مجلة سومر عام ١٩٧٤ ويظهر فيه جانب من القصر المكتشف

من العصر الحجري:

إن كثرة الحديث عن «مليحة» كمركز تجاري ازدهر نهاية الألف الأول قبل الميلاد وبداية الألف الميلادي الأول – لا ينفي وجود آثار تسبق هذه الفترة؛ فقد وجد المنقبون في «مليحة» وجوارها دلائل للوجود البشري فيها منذ أقدم العصور،[١٣] ثم في العصر البرونزي و الحديدي. ومن أروع آثار العصر الحجري في «مليحة» تلك الأدوات الصوانية المميزة المستخرجة من مقالع للصوان في جبل «الفاية» المجاور لمليحة ، شذبتها أياد ماهرة قبل آلاف السنين، واستطاعت بحدّتها ودقتها إطعام بطون جائعة لاحت لها الطرائد من بعيد!

واكتشفت البعثة المحلية التابعة لإدارة الآثار بالشارقة عام ١٩٩٨م في إحدى مزارع النخيل قبراً دائرياً من نمط مدافن أم النار(نسبةً إلى موقع أم النار الذي ذكرناه سابقاً) التي استخدمت للدفن الجماعي في الألف الثالث قبل الميلاد، ووجدت بها بقايا عظمية وكمية من الفخار المحلي والمستورد، وأوعية حجرية مزخرفة، وسكاكين برونزية، ورؤوس رماح وحلي. ويعدّ هذا المدفن بقطره البالغ ١٣,٨٥ متراً الثاني في الحجم بعد مدفن «شمل» برأس الخيمة ضمن مجموعة مدافن أم النار المكتشفة، وقد بني بأحجار متباينة في الحجم، ولبست واجهته بأحجار كلسية منتظمة. وللمدفن مدخل شمالي يؤدي إلى ثماني حجرات دفن، لبست أرضياتها بألواح حجرية مسطحة.[١٤]

مليحة...عوامل الجذب وأسباب الازدهار :

١ – الماء منشأ الحياة:

«إن العوامل الجغرافية والجيولوجية لمكونات أرض الإمارات أثرت في التوزيع الجغرافي لمواقع الآثار»[١٥] حيث نجد الإنسان يتتبع مصادر الرزق ليحدد مكان عيشه واستقراره.

كان الاستقرار السكاني في الخليج العربي قبل استخدام تقنيات تحلية ماء البحر يتركز حول مواقع الماء، ولولا صيد اللؤلؤ وبعض التواصل التجاري لما كان نشوء التجمعات السكانية القليلة على الساحل؛ لارتفاع درجة الحرارة صيفاً وقلة مصادر الماء؛ إذ تركز السكن في القرى المتناثرة في أحضان جبال «الحجر» وبطون الأودية الهابطة منه التي روت أهلها ونباتها من بقايا ما ترسب في أحشاء أرضها من مياه أمطار سقطت في عصور قديمة، تغذيها بين الفينة والأخرى موجات أمطار متفاوتة في كمياتها، استطاعت تعويض الفاقد من المياه الجوفية بالنظر إلى قلة أعداد السكان حينئذ.[١٦]

بعد استئناس الجمل في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد ساعد توفر الماء «مليحة» لتكون مركزاً لاستراحة القوافل التي ستمهد لازدهار تجاري في الجزيرة العربية أواخر الألف الأول قبل الميلاد مع نشوء تجارة البَخور واللُّبان القادم من اليمن، وربما صارت «مليحة» سوقاً تعرِض فيها كل قافلة ما عندها للتجار الذين يفدون إليها من المناطق المجاورة. ولعل قربها من جبال الحجر وفر لها كميات مناسبة من المطر، أدت في بعض الفترات إلى تكون بحيرات قربها منذ العصور القديمة.[١٧] وأكدت مسوح بعثة التنقيب المحلية أن آخر امتلاء لها عاصر فترة ازدهار مليحة،[١٨] وأدى إلى توفر المياه الجوفية، وساعد على زراعة النخيل والحبوب والفاكهة، وتربية الغنم والجِمال والماشية، وربما وجدت أسماك أهل الساحل طريقها الى مستوطنة «مليحة»، يبيعونها مقابل بضائع «مليحة» المتنوعة، وهذا يوفر لسكان المستوطنة ومن يَفِد إليها من القوافل الموارد الغذائية اللازمة لهم أثناء مكوثهم في «مليحة» وكذا التموّن منها لمواصلة الرحلة.[١٩]

إن وجود كثير من الآبار وسعتها دليل على«كثافة أعداد السكان الذين عاشوا» في مليحة ولا يستبعد أن «مياهها الجوفية كانت أقرب بكثير مما هي عليه الآن إبان العصر الهيلينستي، والعصور التي سبقته، والعصور التي لحقته».[٢٠]

جانب من التنقيبات الأثرية في مليحة(الصورة من متحف الشارقة للآثار)

٢- على درب المسافر :

إن مما يؤهل بقعة من الأرض لأن تكون محطةً تجاريةً وقوعها في مكان يسهل الوصول إليه، ووقوعها بين مناطق متعددة تكون الوسيط بينها، وذاك ما توفّر لمليحة؛ فهي في منطقة تنكشف على الصحراء من الجنوب و الجنوب الغربي حتى الربع الخالي؛ ما يمكن قوافل التجارة من بلوغها دون عوائق كالجبال التي شرق «مليحة» وهي كذلك على امتداد سهل «الجو» المفتوح على داخل عمان، ويمكن لقوافله الوصول عبره إلى «مليحة».

وهي قرب أودية وطرق تخترق جبال «الحجر» من الشرق لتصلها بالقرى المتناثرة في سفوحه وبما وراءها على ساحل الباطنة، أضف إلى ذلك أن جبال «مليحة» الواقعة غربها قصيرة تشبه التلال، وفيها مخارج إلى الخليج العربي غرباً.[٢١]

٣- بين بحرين:

مليحة بين ساحلين؛ فهي لا تبعد أكثر من ٦٠كم عن الخليج العربي غرباً ومثلها عن بحر عمان شرقاً؛ ما سهل الوصول إلى موانئهما للاستيراد والتصدير، وتكفي الراجل من «مليحة» من ثلاثة إلى ستة أيام، والراكب يومين إلى أربعة لبلوغ أيٍّ من الساحلين.[٢٢]

ومن موانئ الساحلين التي عاصرت ازدهار «مليحة» في أوقات متفاوتة ميناء «الدور» على الخليج العربي، وهو قرب أم القيوين الحالية، وميناء «دبا» على بحر عمان،[٢٣] وربما صدرت عبرهما بضائع القوافل القادمة من اليمن إلى «مليحة» لتنقل بعدها إلى سواحل الخليج العربي الشرقية قاصدةً فارس، وترجع بعد ذلك منها إلى اليمن عبر «مليحة»، وبذلك تكون «مليحة» محطةً مناسبة لتجارة البلدين؛ فهي أقرب إليهما من موانئ شرق الجزيرة العربية؛ إذ إن تصدير البضائع عبر المينائين مروراً بمليحة أسهل من وجهين: الأول أن الطريق البري بين ممالك اليمن و«مليحة» أقصر من الطريق بينهن و«الجرهاء» في شرق الجزيرة العربية، والثاني قرب الطريق البحرية بين المينائين والساحل الشرقي للخليج.[٢٤]

وقد امتلكت «مليحة» عوامل الجذب لموقعها الطبيعي ومواردها؛ لتكون كما أثبتت التنقيبات جزءاً من طريق البَخور، ومحطةً لاستراحة القوافل وتموّنها، ووسيطاً بين حضارتي اليمن وفارس، وسوقاً لما جاورها في عُمان، فما الأدلة على ذلك؟ وما هي أصلاً قيمة تجارة البَخور واللُّبان لتجلب لمليحة الثراء، وتجعل منها محطة رئيسةً في درب قوافله؟

آثار تجارة البخور في الجزيرة العربية:

إن المتتبع لتاريخ الجزيرة العربية منذ بداية الوجود البشري فيها وحتى اكتشاف النفط يجد أنها«تتألف من جزء جنوبي معمور، وجزء شمالي بدوي»؛[٢٥] إذ لم تنشأ مملكة قبل الإسلام إلا في اليمن.

مِبْخرة من المرمر مستوردة من اليمن وجدت في قبر بمليحة

ربما بدأ ظهور ممالك اليمن منذ الألف الثاني قبل الميلاد، ومنها «معين» في الجوف، وحضرموت التي ضمت في أوجها «ظفار» شرقاً و«بيحان» غرباً وما بينهما، و«قتبان» في بيحان وحولها، و«سبأ» وهي الأشهر، وشملت معظم اليمن مدة، وهناك «أوسان» في الجنوب، و«حمير» التي ورثت هذه الممالك في مرحلة متأخرة.[٢٦] وترافق قيام هذه الممالك مع استئناس الجمل في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد[٢٧] في مكان ما بالجزيرة العربية ربما كان حضرموت،[٢٨] وأحدث استئناسه ثورة في النقل البري حينئذٍ بقدرته على التحمل واختراق الصحراء؛ ما ساعد على تأسيس طرق التجارة البرية التي كان البَخور واللُّبان بضاعتها،[٢٩] وهما مصدر ثراء هذه الممالك في الألف الأول قبل الميلاد والقرون الميلادية الأولى؛ فعلى ظهر الجمل بني مجد هذه الممالك. وشمل الثراء المحطات التجارية التي تمر بها قوافل البَخور عبر الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال، وشرقاً على سواحل الخليج العربي.

كانت العطور الشرقية المخلوطة بالزبيب واللبان والتوابل تستخدم في التحنيط والتعقيم والعلاج، وكان دخان العود يعبق في أجواء الأعراس والمآتم، وفي المناسبات الدينية في مراكز حضارات العالم القديم؛ وبذا عدّ عود البَخور وكذا البلد الذي تأتي منه وهو جنوب الجزيرة العربية مقدساً.[٣٠] ونشأت من المحطات مراكز تجارية وأسواق أمّتها القوافل للتزود بالماء والزاد، وبيع بعض ما تحمله في أسواقها لسدّ حاجة أهلها، ومن يفد إليهم من جوارها: بدواً،

وحضراً. ومن هذه المحطات نجران و«الفاو» في الجنوب و«هجر» و«الجرهاء» (يعتقد أنها حيث «ثاج» الحالية)[٣١] في شرق الجزيرة العربية. وارتفع مستوى دخل أهلها، واقتنوا أثمن البضائع وأنفسها من أسواق العالم؛ فقد وجد المنقبون في بعضها أقنعةً من الذهب وحلياً نفيسةً تعود إلى هذه الفترة. وصارت شهرة الجزيرة العربية آنذاك: العربية السعيدة كما أسماها اليونان، الذين بهرهم ثراء أهلها، وخاصةً ممالك اليمن التي شيدت القصور والمعابد الفخمة، ولبس أهلها أفخر الثياب والحلي، وتمتعوا ببضائع العالم كله؛ فكان البَخور واللُّبان بحق نفط العرب الأول: يصدرونه إلى مستهلكيه، ويرجعون منهم بسلع لا تخطر على البال.

ويذكر المؤرخ سترابو –سترابون– (٦٤ قبل الميلاد –١٩م) أن«(السبأي» «سبأ» «والجرهاي» (ربما يقصد الجرهاء) أغنى القبائل عامة بما لهما من نصيب في تجارة الطيوب؛ فعندهما الأدوات المصوغة من الذهب والفضة، منها الأسرّة ومثلثات القوائم والأحواض، وأوعية الشرب، وناهيك بمنازلهم الفخمة وقد تزوقت أبوابها وجدرانها وسطوحها بالألوان، وترصعت بالعاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة.[٣٢]

ويتحسر المؤرخ بليني على تسمية بلاد العرب بالسعيدة، ويرى أنها «لا تستحق ذلك الاسم» لولا أن ما وصفه بـ(الآلهة السفلية) هي التي جعلت لها هذه المكانة، والسبب «إن إسراف الإنسان حتى في مناسبات الموت هو الذي جعل بلاد العرب سعيدة»، وأن الإسراف في رأيه يتمثل بأنه «يحرق مع الميت ما كان يقصد به أصلاً أن يكون في خدمة الآلهة» أي البَخور، ويروي قصة عن إسراف الإمبراطور نيرو في مراسم جنازة زوجته يوبيا؛ اذ أحرق كمية ضخمةً من البَخور حتى إن بلاد العرب «ما كانت لتستطيع أن تنتج في سنة كاملة ما يساوي الكمية التي أحرقها».[٣٣]

ولعلنا نجد في القرآن الكريم إشارةً لما شهدته أرض سبأ من الغنى قبل كفرها بأنعم الله؛ إذ قال عزّ وجلّ في محكم كتابه:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (سبأ، الآية ١٨)

وفي تفسير ابن كثير لهذه الآية يذكر ما منحهم الله من النعمة والغبطة والعيش الرغيد، وأنهم طوال مسيرهم يمرون بالقرى التي كانت متواصلة بعضها مع بعض، مع كثرة أشجارها وثمارها، حتى إن المسافر لا يحتاج في سفره إلى حمل الزاد والماء فحيث نزل وجد منهما ما يشاء، ويقيل

في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاج إليه في سيره. وذكر أن جملة من المفسرين رأوا أن المراد بقوله عزّ من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ... الآية﴾ هي قرى الشام، أي إنهم كانوا يسيرون في تجارتهم وسفرهم من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة آمنين ليلاً ونهاراً.[٣٤] وهو ما يعني ازدهار الجزيرة العربية كلها إبان ازدهار سبأ، وأنها كانت عامرةً بالقرى المتواصلة التي ربما كانت على نحو ما ذكرنا محطات تجارية تستريح بها القوافل، والله أعلم.

إناء مرمري مستورد من اليمن وجد في قبر بمليحة

الجزيرة العربية تلفت نظر الإسكندر الكبير :

تطلع الإسكندر المقدوني(الكبير) الذي اجتاح المشرق العربي قادماً من اليونان – إلى القضاء على آخر معاقل أعدائه الفرس، ومطاردة إمبراطورهم الهارب، وهو ما تمّ له حين أسقط دولتهم واجتاح عاصمتها برسيبوليس عام ٣٣٠ ق م؛ فما كان من الإسكندر إلا التقدم شرقاً، وضم مساحات واسعة في آسيا إلى إمبراطوريته، لكن كل هذه الانتصارات التي حققها لم تُنْسِه التفكير في شبه الجزيرة العربية، التي كانت – على ما يبدو – في دائرة اهتماماته؛ فأرسل القائد نيارخوس عام ٣٢٥ ق م في أسطول مكون من ١٠٠ – ١٥٠ سفينة، ليستكشف طبيعة الخليج العربي وسواحله، من مصبّ السند إلى مصبّ الفرات، وينقل للإسكندر صورةً واضحةعن الساحل وسكانه. وبعد انتهاء الرحلة أقام الإسكندر لنيارخوس مأدبة عظيمة في بابل احتفاءً بنجاح حملته؛ ما يوحي بأنه كان يعوّل عليها الكثير.[٣٥]

ولعل الدافع الرئيسي للإسكندر إلى التفكير في السيطرة على الجزيرة العربية مابلغه من تحكّم عرب اليمن منذ قرون في تجارة البَخور والتوابل التي يستوردونها من مواطن إنتاجها في الهند وشرقي آسيا بعد أن عرفوا أسرار الرياح الموسمية واتجاهاتها،[٣٦] ثم يعيدون تصديرها إلى بلاد الرافدين ومصر ومن خلفها أوروبا، مستغلين الموقع الفريد للجزيرة العربية بين الهند وأوروبا. وتروي المصادر التاريخية أنه بلغ الإسكندر أن الأكاسيا والمرّ واللُّبان تنمو فيها، وكذلك القرفة وسنبل الطيب.[٣٧]

استعد الإسكندر لغزو الجزيرة العربية براً وبحراً سنة وفاته عام ٣٢٣ق م، لكن المنية عاجلته قبل تحقيق ذلك، وخلف وراءه إمبراطورية تمتد من حدود الصين شرقاً وحتى بلاد اليونان غرباً، وتضم خليطاً من الشعوب والثقافات المختلفة. وقد تقاسم قواده الإمبراطورية؛ فسيطر السلوقيون على شرق الإمبراطورية ووسطها(كان العراق وبلاد الشام ضمنها) في حين حكم البطالمة مصر وبعض فلسطين.(٣٨)

الحضارة الهلينستية ...اختلاط الشرق بالغرب:

بدأ في عهد الإسكندر المقدوني تشكيل حضارة ذات سمات ثقافية جديدة هي خليط من الحضارة اليونانية الغربية والحضارات الشرقية القديمة. وقد حدث الخلط والتلاقح في الأماكن التي سيطر عليها الإسكندر في الشرق، حيث اختلطت شعوب هذه المناطق وتداخلت ثقافاتها على مر العقود والقرون لتشكل ما أطلق عليه المؤرخون والباحثون اسم الحضارة الهلينستية، التي استمرت من القرن الرابع قبل الميلاد وحتى غزو الروم للمشرق العربي في القرن الأول قبل الميلاد.

كانت الجزيرة العربية في هذه الفترة جزءاً من شبكة التجارة العالمية الواسعة والنامية التي استقبلت فيها الممالك الهلينستية الجديدة في المشرق العربي وبلاد اليونان القوافل المحملة بالبخور واللبان وبضائع الشرق القادمة من اليمن، وعادت منها القوافل ببضائع العالم الهلينستي أنسام ثقافته إلى اليمن والجزيرة العربية لتنتشر في عواصم ممالك البخور ومدنه، بل وامتد الأمر إلى استجلاب الفنانين والبنائين إلى تلك العواصم لينقلوا بعض لمسات الفنون في حواضر العالم الهلينستي إلى معابد اليمن وقصورها.(٣٩)

مليحة تؤكد حضورها على طريق البخور:

ومن حصاد التنقيبات طوال أربعين عاماً في مليحة وبناءً على ما سبق ذكره من المؤهلات الطبيعية التي تتمتع بها مليحة، وكذلك الموارد – نستطيع أن نُحاجّ في أن مليحة كانت ضمن شقيقاتها الفاو والجرهاء، ونجران ومأرب، و تمنع وشبوة وغيرها – مشاركةً في تجارة البخور واللبان وما رافقهما من السلع الكثيرة التي ذكرناها «ولموقعها على أطراف الصحراء العربية الشمالية وعلى المسافة نفسها من الخليج العربي وبحر عمان شاركت في الوضع الثقافي(الذي ضم المناطق المذكورة أعلاه) واستفادت من المبادلات بين البحر الأبيض المتوسط وجنوب الجزيرة العربية والساحل الإيراني كما اتضح من بعض الموجودات (٤٠) أي إنها تموضعت على طريق هذه التجارة الهامة، وشاركت فيها، وكانت محطتها في جنوب شرقي الجزيرة العربية. و سنورد بعض ما استنتجته الاكتشافات الأثرية حول هذا.

علاقات مليحة في عصر البخور

أولاً – الأدلة على التبادل التجاري والصلات مع اليمن وباقي البلدان:

إن أول ما لفت نظر المنقبين العراقيين في مليحة هي بقايا جرار «الأمفورا» التي حمل بعضها كتابات يونانية[٤١]، وكانت أول دليل على اتصال الشارقة بسواحل البحر الأبيض المتوسط الأوروبية ممثلةً في بعض الموانئ والجزائر اليونانية؛ وذلك قبل ألفي عام، والمعروف أن اليونان والرومان كانوا على صلة وثيقة بالجزيرة العربية آنذاك؛ لأنها طريقهم إلى الهند والصين وما فيها من السلع المرغوبة في أوروبا،[٤٢] وهذا يعني أن جرار «الأمفورا» اليونانية كانت ضمن القوافل العائدة عبر طريق البخور، ووصل بعضها إلى مليحة ليلبي طلبات المشترين فيها، وكذلك الأمر للقوارير الزجاجية الرومانية.

أما الصلات مع اليمن فتؤكدها الأوعية المرمرية المستوردة منه، التي وجدت في مليحة، وكذلك أجزاء من أوعية معدنية عليها كتابات بخط المسند، ونقوش تشبه ما وجد على أوعية مماثلة وجدت في مواقع باليمن. وتعرض في متحف الشارقة للآثار قطعة نقدية حضرمية

من فئة «تيترا دراخما» عثر عليها في مليحة و عليها نقش لبومة تقليداً لمسكوكات أثينا.[٤٣] ووجدت أوعية وجرار فخارية مستوردة من البحرين و مصر، وبلاد الشام وبلاد الرافدين.

ثانياً – الأدلة على الوحدة الثقافية بين مليحة وشقيقاتها في الجزيرة العربية:

١– النصوص الكتابية:

تنوعت النصوص المكتوبة في مليحة من حيث المادة التي نُقِش عليها ما بين الطين والحجارة، والفخار والقطع المعدنية.[٤٤] وتناثرت في أرضها نقوش كتابية مختلفة تثير من الأسئلة أكثر مما تجيب عليه حول تاريخ هذه الواحة التجارية؛ إذ تورد أسماءً لمعبودات و أشخاص دون بيان طبيعة النظام السياسي و الأحوال الاقتصادية فيها آنذاك .

أثبتت الاكتشافات الأثرية أن سكان مليحة كانوا أكثر استخداماً للكتابة من السكان السابقين في الشارقة، فقد عثر المنقبون على نقوش بخط المسند الجنوبي، وأخرى بالكتابة الآرامية، إضافة إلى النقوش اليونانية التي وجدت على بعض السلع المدفونة مع أصحابها، إلا أن أكثر النقوش تصطبغ بصبغة دينية كمعظم النقوش التي وجدت في اليمن[٤٥] وبعض مناطق الجزيرة العربية الأخرى؛ ما يشير إلى احتكار فئة معينة للكتابة في هذه الفترة سخرتها لهذه الأغراض دون غيرها.

شاهد القبر الذي تظهر عليه كتابة بخط المسند

- **النصوص المكتوبة بخط المسند:**

وجد العديد من الآنية المعدنية والفخاريات التي تحمل نقوشاً كتابية بخط المسند الجنوبي، لسان العربية الجنوبية ومنبعها اليمن، التي انتشرت في عمان، واستعار خطها كثير من عرب وسط الجزيرة العربية وشرقها وبعض أجزائها الشمالية. ولعل أشهر نص كتابي بالمسند ذلك الذي وجده بدوي في مليحة ويمثل نقشاً على شاهد قبر، وأهداه إلى المغفور له – بإذن الله – الشيخ خالد حاكم الشارقة حينئذٍ، ونقل صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة الشاهد إلى المتحف البريطاني لفك رموزه[٤٦] وعرضه على البعثة الفرنسية العاملة بالشارقة لدراسته، وظل محفوظاً في الديوان الأميري بالشارقة حتى تسعينيات القرن العشرين حين أهداه سموه إلى متحف الشارقة للآثار بعيد افتتاحه.

ماذا يقول الشاهد؟

الشاهد من الحجر الكلسي مستطيل الشكل نقشت على وجهه كتابة بخط المسند من أربعة أسطر كالتالي:

ن ف س و ق ب (ر ع) ب ي د (ا)

ب ن أ و(س) (د) ي ب ن ت (غ)

د ن ت (ب ن) ت ش م ت ك ت ب ي

ب ن ت ع (ش ق أ) و (س) ب (ف)...

وترجمته:

(هذا شاهد قبر وضريح عبيدة بن أوس الذي أقيم له بأمر غدانة بنت شمتكتبي بنت عشق أوس).[٤٧]

وهناك قراءة أخرى يرجحها الأستاذ عيسى عباس مراقب التنقيبات والآثار بإدارة الآثار بالشارقة، وعضو فريق التنقيب المحلي وهي:

(نفس وقبر عبيده بن أوس ذي بنت غدنت بنت تشمتكتبي سنت عش وأربع) و فسرها كالتالي:

«يبدأ النص بكلمة (نفس) و ذكر بعض العلماء أن كلمة (نفس) تعني (شاهد) كما في النبطية، ولذا يكون المعنى: (شاهد قبر عبيدة).

إن كلمة(ذي) من الأسماء الموصولة للاسم المذكر في الأسماء القديمة مثال(ذي يزن) أما بنت فربما تعني (ابنة) لكن وجد في بعض النقوش الصفوية ما يدل على أن اسم «بنت» يقصد به علم مذكر؛ ولذا يكون معنى النص (ذي بنت) دالاً على اسم لعلم مذكر.

أما اسم(غدنت) فربما قصد به(غدانه) وهو اسم علم مذكر معروف، ذكره ابن الكلبي في كتاب جمهرة النسب، عند حديثه عن(غدانة بن يربوع بن حنظلة).

أما(تشمت) فهو اسم لعلم مذكر كما ورد في النصوص الصفوية، و(كتبي) هو اسم لآلهة مزعومة عرفت في شمال شبه الجزيرة العربية.

أما(سنت عش وأربع) فهي حسب التاريخ الحميري تعادل ١٨٠ ق م) [٤٨].

- **نقوش متفرقة بخط المسند :**

منها ماعثر عليه منقوشاً على جرّة في مليحة، وهي الأحرف (و د أ ب) وربما تقرأ (أب ود) أي (ود الأب) وهو آلهة مزعومة عند العرب في الجاهلية، وكان المؤله الأكبر عند معين باليمن.[٤٩]

وعثرت البعثة المحلية عام١٩٩١م على قطعة حجرية كلسية عليها نقش مماثل للذي وجد على بعض العملات في مليحة والدور، وهو يشبه المرساة، ويظهر في قفا عملة مليحة بجوار شخص جالس على العرش، وقد فسره البعض بأنه يشبه الرمح الثلاثي الرؤوس، أما من شبهه بالمرساة فيعتقد أنه مماثل لبعض رموز السلوقيين، في حين رجح الدكتور حمد بن صراي أن تكون المرساة رمزاً لميناء الدور.[٥٠]

ووجد رجل في مدحا التابعة لعمان نقشاً مشابهاً، وعثر في شمال العراق في أراضي مملكة الحضر العربية القديمة على نقش مشابه وقيل: إنه رمز للبنائين، لكن الأستاذ عيسى يرجح أنه أقرب إلى حرف الحاء بخط المسند وقد يكون اختصاراً لاسم الآلهه (حمن) وهي من صفات الشمس.[٥١]

واكتشف جزء من وعاء برونزي في مليحة نقشت عليه بخط المسند ستة أحرف هي(م ر

أ ش م س) وتقرأ(امروءالشمس) أو رجل الشمس وربما كان اسماً لصاحب الضريح الذي وجد فيه.[٥٢]

- **النصوص المكتوبة بالآرامية:**

أما الكتابة الآرامية فقد سادت في الشام والعراق، ووجد في مليحة عدد من النقوش المكتوبة بالآرامية على الفخار وبعض الأوعية، وأطول هذه النقوش الآرامية وجد على قطعة معدنية مسطحة عثر عليها في قبر، ونستعرضها فيما يلي:

هل هي تعويذة؟

هذه القطعة المعدنية تشبه صفيحة برونزية ،وهي معروضة في متحف الشارقة للآثار، وربما يمثل النقش الآرامي على الصفيحة نصاً جنائزياً، وقد ترجم إلى العربية كالتالي:

إن هذا القبر والبهو ذو الكوى

قبر بني في موكي

من قبل وهب اللات

وعسى أن يلعن كهل ومناة الشخص الذي يسرقها

النصب التذكاري لأولاده إن حصة

ذريتهم تحدد عن طرق

اتفاق بين الأحياء وخاصة أنفسهم

ولاتوجد هناك وثيقة تحويل للغرباء خاصة النسباء[٥٣] وأطفالهم ولأعمامهم

نجد النص يتحدث عن(موكي)، ويبدو أنه الاسم القديم لمليحة إبان ازدهارها، وهو قريب من الاسم الذي يرد في المصادر الفارسية باسم (ماكا وماشيا) وورد عند سترابون بلفظ ماكاي،[٥٤] فهل ياترى هي ذاتها مليحة؟

أما الأسماء العربية الواردة في النص فهي أسماء معروفة لدى العرب حتى في الفترة التي سبقت الإسلام بقليل؛ فوهب اللات معناه هبة اللات، واللات هو من أصنام العرب المعروفة، وكهل كان معبود قرية(الفاو) الأكبر التي كانت تنسب إليه وتسمى ذات كهل،[٥٥] ومناة أيضاً اسم لآلهة مزعومة عند العرب قبل الإسلام. وهذه المعبودات هي نفسها التي عبدتها قريش

وقبائل عربية أخرى في الجزيرة العربية، وقد ذكر الله عز وجل هذه الأصنام في قوله :

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى(١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى(٢١) ﴾

(سورة النجم)

ويتضح من النص المكتوب بالآرامية أن صاحبه يستعيذ بالآلهة التي يؤمن بها من دون الله لتحفظ قبره من السرقة؛ أي إن الصفيحة المعدنية بمثابة التعويذة في عرف أولئك الناس.[٥٦]

وقد أُرّخ زمن استخدام الآرامية في مليحة بالقرن الميلادي الأول.

الصفيحة البرونزية التي عليها كتابة بالآرامية

- **دلالات النصوص المكتوبة:**

يؤكد استخدام سكان مليحة للخط المسند أنهم «ينتمون إلى العنصر العربي، ولهم صلة بهجرات القبائل العربية إلى المنطقة».[٥٧] وأن غلبة الكتابات بخط المسند في مليحة تشير بوضوح إلى تأثر كبير بحضارة اليمن المزدهرة في نفس وقت ازدهار مليحة، وربما كان مرجع ذلك إلى أن أصول سكان الموقع ترجع إلى قبائل هاجرت من اليمن في فترات ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد،[٥٨] أو أنهم كانوا غالب سكان الموقع؛ ولذا غلبوا الكتابة بهذا الخط الذي

يفهمونه.

أما الاحتمال الثاني فهو أن سكان الموقع من قبائل هاجرت من اليمن لغرض إقامة محطة تجارية تتولى استقبال القوافل القادمة منه وخدمتها وتوفير الزاد والماء لها، وكذلك تحويل جزء من بضائعها لخدمة السكان المجاورين، أي أن يستفاد من المحطة كسوق محلية كما حصل ذلك في مواقع أخرى بالجزيرة العربية. (٥٩)

أما وجود الكتابة الآرامية فربما يشير إلى مستوردات من بلدان ومواقع تعتمد هذه الكتابة كما في شمال الجزيرة العربية و بلاد الشام. وقد يحتج قائل بأن التعويذة ذات النقش الآرامي التي ذكرناها سابقاً قد وجدت مدفونةً في قبر بمليحة، وهذا يعني أن صاحبه يعرف تلك الكتابة ويعرفها مَنْ كتبها له. والرد على ذلك أن من الطبيعي أن توجد الكتابة الآرامية وغيرها في مليحة التي أشرنا إلى أنها موقع تجاري، وتتصل بحضارات أخرى منها بعض المراكز في العراق والشام وشمال الجزيرة العربية حيث تستخدم الآرامية، ومن الطبيعي أن يفد بعض السكان إلى الموقع من هذه الأماكن للتجارة، وربما أقام بعضهم فيه وسكن، وذلك ليس بمستغرب.

أما الاحتجاج بورود بعض الكلمات والمصطلحات التي يستشفّ منها أنها ذات منبع شمالي وليست جنوبية، ولا ترد في كتابات اليمن القديم – فإن الرد على ذلك كسابقه، وهو أن مليحة مركز تجاري يتواصل مع غيره من المراكز، وربما وفد بعض عرب الشمال إليه واستقروا فيه، وهو ما استدعى نشوء كتابة جديدة خرجت من رحم المسند الأم، ولكنها حملت سمات شمالية فرضها التركيب السكاني في الموقع، ووجود جاليات من التجار والمنحدرين من قبائل ذات أصول شمالية، ربما أثروا في الموقع وثقافته المحلية. ونجد شبيهاً لذلك في موقع معاصر لمليحة هو «قريّة» أو «الفاو» حالياً، في الجنوب الغربي من الرياض على بعد ٧٠٠ كم.(٦٠) ثمة ظنّ يلوح في ذهني يرتبط بالفاو للتشابه الكبير بينها وبين ما وجد في مليحة، فهل تكون مليحة على علاقة وصلة بمملكة كندة المزدهرة التي كانت (قريّة) عاصمتها بما يفوق مسألة التجارة والتواصل الحضاري العادي؟ وما المانع من أن يكون بين الموقعين المتعاصرين تواصل سكاني وعلاقات سياسية من نوع ما؟

ومن دلائل الشبه في هذا المجال:

١–وجود ما يشبه المقر الإداري في كلا الموقعين.

٢–سكّ كلا الموقعين لعملته المحلية.

٣–وجود المدافن ذات الأبراج الجنائزية.

٤–غلبة خط المسند في الاستخدام مع وجود تأثيرات شمالية.

٥–الصلات القوية مع ممالك اليمن.

٦–وجود المنازل المختلفة في أحجامها وطريقة بنائها، التي تدل على تمايز طبقي في حياة سكان الموقعين.

٧–وجود الموقعين في مكان فيه الماء وعلى طريق القوافل.

٨–تمتع الموقعين بموارد اقتصادية متشابهة تتمثل في:

– الأراضي الخصبة الصالحة للزراعة.

– وجود المراعي المناسبة لرعي الماشية والغنم والمعز، مع ملاحظة أن المناخ وقتئذٍ كان أكثر مطراً من الوقت الحاضر، والدليل على ذلك اكتشاف بقايا بحيرة في مليحة كان آخر امتلاء لها في نفس الفترة التي شهدت ازدهارها. أما الدليل في «قريّة» هو وجود عظام لحيوانات برية تعتمد على وفرة الأعشاب للعيش، وكذا اكتشاف كمية ضخمة من عظام الماشية و الغنم والمعز في الموقع يدل على رعي منظم أنتجه عشب نضر كسا الجوار في عهد الازدهار.[٦١]

– التجارة.

وقد بزّت مليحة «قريّة» في خصلة واحدة هي وجودها في موقع بين ساحلين تبعد عن كل منهما نفس المسافة تقريباً، والطريق إليهما سالك، مع ملاحظة أن الطريق إلى الساحل الشرقي على خليج عمان يمر في سلسلة جبلية، تحتم تعرّجه، وإن كان لا يقطعها؛ ولذا لا يعدم السائر فيها طريقاً يصل به إلى بحر العرب.

- **النصوص المكتوبة باليونانية:**

وجدت في مليحة بقايا جرار يونانية ، ومقابض جرار نقشت عليها كتابات يونانية، وهي لا تدل على معرفة أهل «مليحة» باليونانية بقدر ما تدل على أنها نصوص كتبها أصحاب هذه القطع الأصليون قبل أن يقتنيها أهل مليحة، كمن يشتري في عصرنا الحاضر جهازاً كهربائياً من اليابان وتكون عليه كتابة باليابانية، فهل يدل وجود الجهاز في بيته على معرفته باليابانية؟! ومن المستبعد أن يكون سكان الموقع من اليونانيين «لمجرد العثور على كلمات يونانية على

كِسَر فخارية» كما أنها «لا تدل أبداً على وجود جالية يونانية في مليحة».[٦٢]

ومن هذه النصوص المكتشفة في سبعينيات القرن العشرين نص يوناني على مقبض جرة «أمفورا» معروض في متحف الشارقة للآثار، يظهر اسم الشخص الذي صنعها، وتاريخ الصنع الذي كان في القرن الثاني قبل الميلاد. وتعدّ هذه المقابض أول دليل مكتشف في الإمارات العربية على قيام صلات بينها و بين المدن اليونانية قبل الميلاد.

وفي عام ١٩٨٦م وجدت بعثة التنقيب الفرنسية أثناء عملها في مليحة مجموعةً من اللقى الأثرية تشمل بعض مقابض الجرار اليونانية المصنوعة في جزيرة «رودس» ونقشت عليها

مقبض جرة أمفورا من مكتشفات البعثة الفرنسية، وتظهر عليه الكتابة اليونانية

كتابات، وختمت بأختام يونانية تظهر صناعتها في فترة ٢٣٦ –١٧٦ قبل الميلاد، وتشير إلى تجارة النبيذ في المنطقة.[٦٣]

٢– المدافن والقبور:

دفن سكان مليحة كبار القوم في قبور مربعة تعلوها أبراج جنائزية تذكارية مصمتة ليس

لها أبواب للدخول، وهي مبنية من اللبن، و يبلغ ارتفاعها أقل من أربعة أمتار، ولعلها بنيت لتخليد ذكراهم. وقد زينت أعالي هذه الأبراج بزخارف مدرجة أو أفاريز تدور حول البرج

مصب إناء برونزي على شكل رأس ثور وجد في قبر بمليحة

من جميع جهاته، وبعض هذه القبور مكوّن من حجرة واحدة تحت الأرض يعلوها البرج الجنائزي، وهناك قبور تتكون من حجرتين تحت الأرض يعلوها برج جنائزي. ولعل مرد الاختلاف هو درجة ثراء المدفونين؛ إذ إن أغراض الشخص الثمينة تدفن معه، وهذا يعني أن تخصيص غرفة إضافية بجانب القبر كان لوضع المزيد من الأغراض التي لم تتسع لها غرفة الدفن الرئيسية؛ أي إن صاحب الحجرتين أغنى من صاحب الحجرة الواحدة. وعلى كل فالاثنان خاسران!؛ لأن بروز هذه الأبراج الجنائزية أطمع السراق فيها بعد مدة من الزمن حين زالت الحماية عنها؛ لذلك لم يجد المنقبون كثيراً من اللقى الأثرية التي تمثل الكنوز في هذه القبور ذات الأبراج؛ بل وجدوا بوضوح في بعضها آثاراً لحفر السراق؛ الذين لم يتركوا فيها سوى بعض كسر الفخار المزجج ورؤوس السهام.[٦٤]

أما الرابط بين هذه المدافن وما وجد في أماكن أخرى من الجزيرة العربية فهو وجود مدافن مشابهة تعلوها أبراج جنائزية في منطقة الفاو جنوب غربي الرياض،[٦٥] لكنها أكثر ارتفاعاً من مدافن مليحة، وكذلك الزخارف المدرجة التي وجدت على أبراج مليحة الجنائزية تشبه الموجودة في بيوت مدائن صالح المنحوتة في شمال غربي الجزيرة العربية، ولها شبيه في قرى الأنباط بالأردن.[٦٦]

- **عادات الدفن وشعائره:**

من الممارسات الغريبة في الدفن التي ابتدعها أهل مليحة في هذه الفترة الزمنية واختلفت عمّا مارسه أهل العصور السابقة – عادة دفن الخيول والجمال إلى جانب أصحابها المتوفين! إذ لم يكتف بعض أثرياء مليحة بدفن متعلقاتهم الشخصية معهم، بل أضافوا إليها دفن أهم حيواناتهم كالخيول والجمال! فما هي قصة هذا الدفن؟

- **مقبرة الخيول والجمال في مليحة :**

اكتشفت بعثة الآثار المحلية برئاسة الدكتور صباح جاسم عام ١٩٩٤م مقبرةً تضم عدداً من الخيول والجمال مدفونةً بجانب قبور أصحابها[٦٧]، وقد فسر ذلك برأيين: الأول أن هذه الخيول والجمال قدمت كأضاحٍ لمعبود أصحابها، وكقرابين لإرضائه، والثاني أنها استمرار للعادة القديمة المبنية على الاعتقاد بالبعث بعد الموت، وضرورة أن تدفن مقتنيات الشخص الأثيرة معه لترافقه في الحياة الجديدة، ويستدل أصحاب هذا الرأي على ذلك بأمرين:

الأول – أن امتلاك الجمال والخيول مثّل قيمة كبيرة عند العربي عبر العصور،وكانت الخيول دليلاً على ثراء صاحبها لما تحتاج من رعايةٍ خاصةٍ لا يقدر عليها إلا الموسرون؛ ولذا فإن دفن هذه الحيوانات إلى جانب أصحابها – مع قيمتها الكبيرة وتعلقه الشديد بها – يؤكد أنها ضمن المقتنيات الأثيرة التي يريدها أن تكون معه في الحياة الأخرى كما يعتقد.

الثاني – أن عادة دفن الخيول والجمال وجدت عند كثير من القبائل العربية في مناطق أخرى في الجزيرة العربية، وكان بعض عرب الجاهلية يوصي أولاده بدفن راحلته معه ليحشر عليها، حتى لا يحشر راجلاً؛ ولذلك توضع ناقته إلى جوار قبره ويربطونها معكوسة الرأس، وتترك حتى تموت ويسمونها «البلية». وذكر كثير من شعراء الجاهلية «البلية» في أشعارهم كدليل على انتشار شعائرها بينهم.[٦٨]

ومن المثير للدهش أن «الجمال المدفونة كانت توضع باركةً، وتشدّ رقابها إلى الخلف لتكون عند منتصف ظهورها، وهي نفس الطريقة المتبعة حالياً في نحر الإبل بدولة الإمارات العربية المتحدة. ويبقى السؤال: هل دفنت الجمال حية أم ميتة؟ وهل كانت عملية الذبح تتم داخل المدفن أم خارجه؟).[٦٩]

ونلاحظ من رغبة هؤلاء في البعث راكبين غير راجلين، اعتداداً زائداً بالنفس، وأنفةً من أن يبعث أحدهم راجلاً كغيره من عامة الخلق، وفيها أيضاً دليل على قيمة الناقة عندهم؛ إذ اختاروها لتبعث برفقتهم كما يزعمون وهم يركبونها.[٧٠]

ويبدو أن الجمال كانت تدفن أحياناً مع هدايا مميزة، ومن ذلك ما وجد في أحد المدافن حيث دفنت مع الجمل زمزمية مزججة وسكين، وربما هدايا أخرى، لكنها سرقت![٧١].

ولاحظ المنقبون أن عظام الجمال المكتشفة في الموقع ثقيلة نسبياً مقارنةً بعظام الجمل الحالي، ورجحوا من الفحوص التي أجراها الدكتور هانس بيتر أوبرمان من جامعة توبنغن الألمانية أنها هجين من الجمل العربي ذي السنام الواحد والجمل ذي السنامين المنتشر في آسيا الوسطى، والمسمى «البخت» التي لم يعد لها وجود في الجزيرة العربية. وقُدِّر عمر هذه المقبرة بالقرون

الميلادية الثلاثة الأولى.[٧٢]

ومن المناسب هنا تأكيد أن قبوراً أخرى لجمال وجدت إلى جانب بشر في موقع «الدور»، وجبل «الأميلح» و في قطر وعمان،[٧٣] ووجدت في حضرموت قبور مماثلة لكنها أقدم، وتعود إلى الفترة بين القرن السادس قبل الميلاد والقرن الميلادي الأول.[٧٤] وكان لأحد القبور في المقبرة أهمية خاصة أثارت دهش المنقبين؛ إذ وُجِد فيه هيكلان: أحدهما لجمل، والآخر لحصان دفن إلى جانب ضريح صاحبه مزيناً بلجامه ذي الأقراص الذهبية.

- **الحصان المطهم:**

ترى من يضحي بكل هذا الذهب ويدفنه في التراب؟!

إنه ذلك الشخص المجهول من «مليحة» الذي وجد مدفوناً بجانبه حصانه ذي اللجام الذهبي! وما مركزه الاجتماعي الذي سمح له باكتناز هذا القدر من الذهب قبل أكثر من ١٨٠٠ عام؟! وما دفعه إلى رمي هذه الكمية من الذهب وسط الرمال؟!

إنه المعتقد الذي جعل أقرباء هذا الشخص يضحون بحصانه وجمله ويدفنانهما بجانبه، ومع الحصان لجام ذهبي بأقراصه الدائرية ذات الحجمين المختلفين(قرصان كبيران قطر الواحد ١٤ سم، وثمانية صغار قطر الواحد ٥,٥ سم) يبدو أن بعضها كان يتصل ببعض بواسطة حزام جلدي تَحلَّلَ بمرور الزمن.[٧٥]

ولعل الأمل في الحياة بعد الموت دفع هؤلاء إلى دفن أعزّ أغراضه معه، ويبدو أن اللجام أحدها، وربما كان هذا المتوفى تاجراً ثرياً جاب البحار والقفار حتى جمع ثروته التي مكّنته من تزيين حصانه بالذهب، أو حاكماً، أو سليل أسرة ثرية اقتنت من الكنوز ما كان هذا اللجام واحداً منها، فهل كان أخذ العزيز من المتاع إلى حياة أخرى أهم من تركه إرثاً للعزيز من العيال أم أن ما أخذه هذا الرجل معه هو قليل من كثير تركه لورثته وأحبائه ممن تخلّوا طوعاً عن هذا اللجام ودفنوه مع مورثهم بكل طيب خاطر؟!

وما الذي دفع مَنْ واروه في الثرى إلى أن يضحوا بهذا الذهب في التراب، وجعلهم يحترمون وصيته ومعتقده حتى وهو جثمان بين أيديهم لا يقدرعلى شيء؟!

أسئلة لمن كانوا في مليحة يوماً ما وصاروا اليوم نسياً منسياً.

لجام الخيل الثمين الذي أبهر مكتشفيه

المراجع والمصادر:

– القرآن الكريم

(١) الآثار في الخليج العربي،ما يكل رايس – ترجمة صالح محمد علي، وسامي الشاهد، إصدار المجمع الثقافي بأبوظبي ٢٠٠٢م، ص٥١

(٢) الحضارة الدفينة ...مدخل إلى آثار دولة الإمارات العربية المتحدة، تأليف بيتر هيلير ١٩٩٨، ص١٧٦

(٣) الكشف عن الأبجدية الأولى لتاريخ الإمارات، د منير يوسف طه، إصدار اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، ٢٠١٣م، ص ٤٧

(٤) المعجم الوسيط إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ص٨٨٣

(٥) مليحة والبحث عن عمانة،د منير يوسف طه، إصدار دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة ١٩٩٦م، ص٣٢

(٦) فخار من الإمارات العربية المتحدة، مقال د منير طه، مجلة سومر، ج١ وج٢، مجلد، ٣٠، ١٩٧٤م، ص١٥٩

(٧) مليحة والبحث عن عمانة،ص ٤٤

(٨) عمان من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادي،د حمد بن صراي ، ٢٠٠٥م، ص٨٢ و ٨٣

(٩) تنقيبات البعثة العراقية في مليحة الشارقة، مقال د طارق مظلوم، مجلة سومر، ج١ وج٢، مجلد ٣٠، ١٩٧٤م، ص١٥١ و١٥٢

(١٠) الكشف عن الأبجدية الأولى لتاريخ الإمارات ،د منير يوسف طه ،إصدار اتحاد كتاب وأدباء الإمارات ٢٠١٣م، ص٣١

(١١) المصدر السابق، ص ٤٩

(١٢) تنقيبات البعثة العراقية في مليحة الشارقة، ص١٤٩و١٥٠

(١٣) التقرير الأول لمسوحات البعثة الفرنسية في الشارقة (١٩٨٤)،ميشيل موتون، وريمي بوشارلات، وآخرون، إصدار إدارة الآثار بالشارقة، ص١٢

(١٤) قبر أم النار في مليحة، مطوية من منشورات إدارة الآثار بالشارقة

(١٥) التوزيع الجغرافي للمواقع الأثرية في دولة الإمارات،عيسى عباس حسين، إصدار إدارة الآثار بالشارقة، ٢٠١٠،ص١٤

(١٦) التقرير الأول لمسوحات البعثة الفرنسية في الشارقة ص١١و ١٢

(١٧) البيئة الطبيعية لجبل البحيص ماضياً وحاضراً (بالإنجليزية)، هانز بيتر، ومارغريت أوبرمان، وصباح جاسم ،إصدار دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة، ٢٠٠٨م، مقال لأدريان ج باركر، ص٧٨و٧٩

(١٨) مقابلة مع د صباح جاسم مدير الآثار بالشارقة، ٢٠١١م

(١٩) آثار الشارقة تروي تاريخها ،خالد حسين ،مراجعة د صباح جاسم، إصدار متحف الشارقة للآثار، ص١١٣

(٢٠) مليحة والبحث عن عمانة، ص٦٢

(٢١) آثار الشارقة تروي تاريخها، ص١١٣

(٢٢) التقرير الخامس لمسوحات البعثة الفرنسية في الشارقة (١٩٨٩،٨٨م)،ميشيل موتون، وريمي بوشارلات، وآخرون، إصدار إدارة الآثار بالشارقة، ص٢٠

(٢٣) قراءة في ثقافة مليحة من خلال المكتشفات الأثرية، محاضرة لعيسى عباس مراقب الآثار بإدارة آثار الشارقة بتاريخ ٢٠٠٩/١٢/١٩

(٢٤) آثار الشارقة تروي تاريخها، ص١١٣

(٢٥) الصراع السياسي في شبه الجزيرة العربية، فريد هاليداي، دار الساقي، ط٢ ٢٠٠٨، ص٤٩

(٢٦) تاريخ اليمن القديم، محمد عبدالقادر بافقيه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص١٩

(٢٧) أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، د يوسف محمد عبدالله، دار الفكر، ط٢، ١٩٩٠، ص٣١٥

(٢٨) الإبل في الإمارات: دراسة تاريخية تراثية أدبية ،فاطمة المنصوري، إصدار مركز زايد للتراث والتاريخ، ص٣٠

(٢٩) أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، ص٣١٤ –٣٢٠

(٣٠) مملكة قتبان وسبأ، وندل فلبس، ترجمة الفاضل عباس، مراجعة د أحمد عبدالرحمن السقاف، المجمع الثقافي، أبوظبي، ٢٠٠٢م، ص٣٤

(٣١) مسكوكات ما قبل الإسلام في شرق الجزيرة العربية، د ت بوتس، ترجمة د صباح جاسم، إصدار دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة،

١٩٩٨، ص١٧

(٣٢) تاريخ العرب، دفيليب حتي وآخرون، دار الكشاف، ط ١٢، ٢٠٠٧، ص٧٨

(٣٣) تاريخ اليمن القديم، ص١٧٣

(٣٤) مختصر تفسير ابن كثير للإمام أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، اختصار الشيخ عرفان العشا حسونة الدمشقي، نشر دار الفكر بلبنان، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٣٦

(٣٥) منطقة الخليج العربي من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرنين الأول والثاني الميلاديين ، د حمد بن صراي، إصدار المجمع الثقافي بأبوظبي، ٢٠٠٠، ص٤٠ –٥١

(٣٦) مملكة قتبان وسبأ، ص٣٢

(٣٧) الخليج العربي في العصور القديمة، ج ٢ من الإسكندر الكبير إلى ظهور الإسلام، دانيال ت بوتس، إصدار المجمع الثقافي بأبوظبي، ترجمة إبراهيم خوري و مراجعة د أحمد عبدالرحمن السقاف، ص٦٦٥

(٣٨) موسوعة مختصر التاريخ القديم، هارفي بورتر، إصدار مكتبة مدبولي،١٩٩١، ص٢٩٨ و٢٩٩

(٣٩) شبوة عاصمة حضرموت القديمة، نتائج أعمال البعثة الأثرية الفرنسية اليمنية، إصدار المركز الفرنسي للدراسات اليمنية بصنعاء، ص٨٦و٨٧

(٤٠) التقرير الرابع لمسوحات البعثة الفرنسية في الشارقة (١٩٨٨)،ميشيل موتون، وريمي بوشارلات، وآخرون، إصدار إدارة الآثار بالشارقة، ص٣٧. ملاحظة: ربما قصد من قوله الصحراء العربية الشمالية: أن مليحة تقع على أطراف الصحراء العربية في الجنوب الشرقي للجزيرة العربية، وهذا هو الأسلم.

(٤١) تنقيبات البعثة العراقية في مليحة الشارقة، ص١٥١

(٤٢) تاريخ العرب، ص٧٥

(٤٣) عملتان من جنوب الجزيرة العربية في مليحة، مقال ل. أ. ف سيدوف، معهد دراسات الشرق بموسكو نشر في مجلة علم الآثار والنقوش العربية (بالإنجليزية)١٩٩٥م، ص٦٣

(٤٤) قراءة في ثقافة مليحة.

(٤٥) دراسات سبئية، مقال لإبراهيم الصلوي أستاذ فقه اللغات في جامعة صنعاء، إصدار جامعة صنعاء، ٢٠٠٥، ص ١١٧

(٤٦) حصاد السنين: ثلاثون عاماً من العمل الثقافي في الشارقة ، تأليف الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، ط١، ٢٠١١م، ص١٠٢

(٤٧) أرشيف معلومات القطع الأثرية في متحف الشارقة للآثار.

(٤٨) قراءة في ثقافة مليحة.

(٤٩) منطقة الخليج العربي من القرن ٣ ق م إلى القرنين ١و٢ م، ص ٢٨٥

(٥٠) قراءة في ثقافة مليحة.

(٥١) المصدر السابق.

(٥٢) المصدر السابق.

(٥٣) بحسب الترجمة الموجودة «قرين» رقم القطعة في قاعة شبه الجزيرة العربية الكبرى بمتحف الشارقة للآثار

(٥٤) عمان من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادي ، ص٦٦و٦٧

(٥٥) قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام، دعبدالرحمن الأنصاري، إصدار جامعة الرياض، ١٤٠٢هـ، ص١٦

(٥٦) أثار الشارقة مجموعة من مقتنيات متحف الشارقة للآثار ، ٢٠٠٨، ص٨٢

(٥٧) منطقة الخليج العربي من القرن ٣ ق م إلى القرنين ١و٢ م ص ٢٧٩

(٥٨) عمان من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادي ،ص٧٥

(٥٩) تاريخ اليمن القديم، ص٣٠

(٦٠) قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام، ص٢٣

(٦١) المصدر السابق، ص١٦–٢٣

(٦٢) عمان من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادي، ص٨٢و٨٣

(٦٣) التقرير الثالث لمسوحات البعثة الفرنسية في الشارقة (١٩٨٦)،ميشيل موتون، وريمي بوشارلات، وآخرون، إصدار إدارة الآثار بالشارقة ص٥٤

(٦٤) تقرير الموسم لبعثة التنقيب البلجيكية في مليحة، ٢٠٠٩م، حولية آثار الشارقة، إصدار إدارة الآثار بالشارقة، م١٣، ٢٠١٣، ص٢٨ – ٣٢

(٦٥) مقابلة مع الدكتور صباح جاسم مدير الآثار بالشارقة ورئيس بعثة التنقيب فيها حول قصر مليحة، بتاريخ ١٣/٢/٧،١١م

(٦٦) آثار الشارقة تروي تاريخها، ص١١٨

(٦٧) اكتشاف مقبرة الجمال في مليحة، بحث للدكتور صباح جاسم مدير إدارة الآثار بالشارقة، نشر في مجلة علم الآثار والنقوش العربية (بالإنجليزية)١٩٩٩م، ص٧٠ وما بعدها

(٦٨) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ج٦، ص١٢٩

(٦٩) اكتشاف مقبرة الجمال في مليحة، ص٩٥و٩٦

(٧٠) آثار الشارقة تروي تاريخها، ص١١٩

(٧١) اكتشاف مقبرة الجمال في مليحة، ص٩٧و٩٨

(٧٢) الإبل في بلاد الشرق الأدنى القديم وشبه الجزيرة العربية، د حمد محمد بن صراي، ص٨٥

(٧٣) اكتشاف مقبرة الجمال في مليحة، ص٩٧

(٧٤) الإبل في بلاد الشرق الادنى القديم وشبه الجزيرة العربية، ص٩٤

(٧٥) اكتشاف مقبرة الجمال في مليحة، ص٧٧